

المكتبة الثقافية

١١٨

اضواء جديدة
على الحروب الصليبية

الدكتور سعيد الفخام عاشور

لبنان دار النشر
الدار المصرية
للتأليف والترجمة

أول أكتوبر ١٩٦٤



Bibliotheca Alexandrina

909

المكتبة الثقافية

١١٨

أضواء جديدة
على الحروب الصليبية
الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

لشقافة وادب وشار القومى

الدار المصرية
للتأليف والترجمة

أول أكتوبر ١٩٦٤

توزيع



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

طنطا ميدان الساعة

ت : ٢٥٩٤

المقدمة

إذا كانت إسرائيل قد تمكنت اليوم من اغتصاب بقعة
عزيزة على كل عربي من صميم وطننا ؛ فإن هذه
ليست التجربة الأولى من نوعها في تاريخ الأمة العربية . ذلك
أنه حدث منذ تسعة قرون تقريبا أن خرجت جموع كثيفة
من غرب أوربا أطلقت على نفسها اسم « الصليبيين » واستطاعت
أن تقيم لنفسها ملكا في نفس البقعة من بلاد الشام ؛ ومن هذا
المركز المتوسط في قلب الوطن العربي أخذ الغزاة الغاصبون
يعملون على مد نفوذهم وسيطرتهم ؛ تارة إلى أطراف العراق
وطورا إلى أطراف مصر وشبه الجزيرة العربية .

والواقع أن الباحث لا يسهه سوى أن يسلم بالتشابه الشديد
بين الظروف التي أقام فيها كل من الصليبيين في نهاية القرن
الحادي عشر وإسرائيل في القرن العشرين دولتهما في ذلك الجزء
الحساس من جسم الأمة العربية . ففي كلتا الحالتين اعتمد
المغتصب الدخيل على انقسام العرب وحكامهم في الشرق الأدنى
إلى قوى متنافسة لا يربط بينها رباط الإحساس بالخطر .
وفي كلتا الحالتين استطاع العدو المغتصب أن يعتمد على عنصر

الخيانة ، وأن يعثر على بعض الخونة من حكام العرب الذين باعوا أنفسهم وضمايرهم واختاروا أن يسالموا الدخلاء خوفاً على عروشهم وسلطانهم . وفي كلتا الحالتين ظهر رد الفعل قويا في صفوف الأمة العربية ؛ فلم يرض الضمير العربي عن ذلك الوضع ، ولم يجد الرأي العام العربي ملاذاً يعصمه من الخطر إلا الوحدة ؛ فارتفع صوت المخلصين ينادى بوحدة الصف ووحدة الهدف لاستخلاص أرض العروبة من مغتصبها .

ولم تكد تتحقق الوحدة العربية في القرن الثاني عشر حتى أدرك الصليبيون أن لا مقام لهم في أرض العروبة ؛ فتحولت مكاسمهم إلى خسائر وانقلبت انتصاراتهم إلى هزائم ؛ حتى انتهى الأمر — في نهاية القرن الثالث عشر — بطردهم شر طردة من بلاد الشام . وبفضل هذه الوحدة أيضاً سيأتى عن قريب — إن شاء الله — اليوم الذى يتمكن فيه العرب من الإطاحة بإسرائيل فى عرض البحر مثلاً أطاحوا من قبل بالصليبيين الغربيين . ولن ينفع إسرائيل عندئذ اعتمادها على الغرب ، فقد سبق للصليبيين أن اعتمدوا على جيوش الغرب الأوربي وأمواله وسلاحه فلم يغنهم ذلك شيئاً ، ولم يستطيعوا الصمود أمام قوة شعب آمن بالله وبوحدته وبحقه فى حياة حرة كريمة .

ومن هذا يبدو أننا اليوم أشد ما نكون حاجة إلى التأمل
في تاريخ الحركة الصليبية ودراستها لنستفيد من تلك التجربة
الكبرى التي مرت بها الأمة العربية منذ بضعة قرون ، و نأخذ
منها الدروس والعظات لنواجه أفدح خطر يواجه الأمة العربية،
اليوم ، وهو خطر الاستعمار وأذنا به في الداخل وأعوانه
في الخارج .

وفي هذا البحث الموجز حاولت أن أعرض الحركة الصليبية
عرضا مبسطا واضحا وأن ألم بأطراف تلك الحركة وأدوارها ،
فضلا عما تخللها من تيارات حضارية واجتماعية واقتصادية .

والله ولي التوفيق ؟

سعيد عبد الفتاح عاشور

كلية الآداب بجامعة القاهرة

جاءى الأولى ١٣٨٣

سبتمبر ١٩٦٤

ماهية الحروب الصليبية

التايخ ملئ بمحركات الهجرة وانتقال الشعوب من مكان إلى آخر . ومن هذه الحركات العديدة ما اتخذ طابعا سلمياً معتدلاً ، ومنها ما اتخذ طابع الغزو العنيف الذي يستهدف تشريد أهل البلاد وأصحابها الشرعيين ، وحرمانهم من حقوقهم وأرضهم .

ومهما تعدد الأسباب الظاهرية لتلك الهجرات ، فإن الاتجاه الحديث يحاول دائماً أن يفسرها في ضوء العامل الاقتصادي . فتحت تأثير البيئة وقسوتها وتغير أحوالها ، وما قد يعترئها من جفاف وجذب بعد مطر وخصب ؛ هاجر الفينيقيون واليونانيون في العصور القديمة وانتشروا على سواحل البحر المتوسط وفي جزره ، ونزح الجرمان في فجر العصور الوسطى من بلادهم حول شواطئ البلطيق إلى جنوب أوروبا ؛ واندفع المغول في القرن الثالث عشر من جوف آسيا نحو الشرق الأدنى وشرق أوروبا .

على أنه من المبالغة أن ننسب جميع الهجرات الكبرى

في التاريخ إلى العامل الاقتصادي وحده ؛ فهناك أمثلة لحركات ضخمة شاركت في بعثها وتوجيهها عوامل أخرى دينية وفكرية واجتماعية وسياسية ؛ فضلا عن العوامل الاقتصادية . ومن هذه الحركات الحركة الصليبية . والواقع أنه لا توجد حركة في تاريخ العصور الوسطى أحق بالدراسة لكشف حقيقتها وإبراز معانيها وافتحة خالصة من الأوهام التي علقت بها ، من الحركة الصليبية . هذا فضلا عن أهمية هذه الحركة بالنسبة للشرق العربي والغرب الأوروبي ، ثم بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب جميعاً . ففي الحركة الصليبية التقى الشرق بالغرب ؛ ولم يكن اللقاء حرياً في ساحة الوغى فحسب بل كان أيضاً لقاء حضارياً بأوسع ما يحتمله هذا التعبير من معان . وفي الحركة الصليبية وقف الإسلام والنسحية وجهاً لوجه ، لا وقفة الخصمين المتنافسين فحسب بل أيضاً وقفة الأخوين المتعاطين اللذين يربط بينهما رباط سماوي وثيق . وفي الحركة الصليبية خرج الغرب الأوروبي لأول مرة في التاريخ عن عزلته وجري وراء أطماعه مستخدماً نفس الأساليب التي ما زال يستخدمها حتى اليوم من تهديد وغزو واغتصاب وحصار اقتصادي

* * *

وكان ذلك قرب نهاية القرن الحادى عشر للميلاد عندما فوجئ المسلمون فى الشرق الأدنى بموجة ضخمة من الغزاة الأوربيين يقتحمون بلاد الشام ويحاولون بسط سيطرتهم على العراق شرقاً ومصر غرباً والحجاز جنوباً ، وبذلك ينتزعون جزءاً هو بمثابة القلب من جسم الأمة العربية .

وقد استند المؤرخون فى الماضى إلى نسبة تلك الحركة إلى الصليب وفسروها فى ضوء العامل الدينى وحده ؛ فقال مؤرخو الغرب إن الحروب الصليبية حروب دينية مقدسة ، قام بها أناس غلب عليهم شعور التقوى والورع والإخلاص لدينهم وكنيستهم ؛ فرغبوا فى استخلاص الأماكن المقدسة من المسلمين بالشام ؛ ومن أجل هذا الهدف الدينى وحده حملوا الصليب وهجروا الأهل والأوطان قاصدين بلاداً طالما حنوا إليها وسمعوا بها فى كتبهم الدينية .

والواقع أنه ليس أبعد عن الحقيقة والتاريخ من القول بأن الحروب الصليبية لم تكن إلا حروباً دينية قام بها أناس أداروا ظهورهم للدنيا ومتاعها ولم يستهدفوا غرضاً سوى الدين وخدمة الدين . وإن نظرة يلقيها الباحث على سلوك الصليبيين فى الشرق سواء فيما يتعلق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما

يتعلق بتصرفاتهم تجاه أهل البلاد الأصليين ؛ لتوضح أن أولئك الصليبيين لم يكن لهم من المسيحية إلا اسمها ، وأنهم ظلوا دائماً أبعد ما يكونون عن روح المسيحية ، وهي الديانة السماوية الكريمة التي حرص القرآن على تكريم نبيها تكريماً لم يحظ به أحد من الأنبياء السابقين .

وأى وازع دينى كان عند أولئك الغزاة الذين لم يحجموا عن ذبح سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس في أيديهم في يولييه سنة ١٠٩٩م ؟ بل أى وازع دينى كان عند أولئك الصليبيين الغربيين عندما اقتحموا القسطنطينية سنة ١٢٠٤م — وهو البلد المسيحى الآمن — وعندئذ لم يتورعوا عن نهب كنائسها والاعتداء على أهاليها المسيحيين وهم إخوانهم فى الدين ؟

لعل فى هذه الشواهد وغيرها ما يكفى لأن يجعلنا نبحث عن عوامل أخرى حقيقية غير العامل الدينى حركت تلك الجموع من الصليبيين نحو الشرق وظلت تغذى حركاتهم طوال عدة قرون تالية . حقيقة إن البابوية هى التى دعت للحروب الصليبية وأعلنتها حرباً عارمة بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين فى الشرق ؛ ولكن ما الذى جعل جموع الناس فى غرب

أوروبا يستجيبون في سرعة وحماسة لنداء البابوية ؟ ثم ، أكانت البابوية ذاتها عندما دعت للحروب الصليبية تستهدف خدمة الدين حقاً أم أنها كانت ترمى إلى تحقيق مكاسب وأطماع ذاتية خاصة أهمها بسط نفوذ الكنيسة الغربية الكاثوليكية على الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ؟

إن الرأي الحديث يتجه إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادي في دفع فئات كثيرة من أهالي غرب أوروبا إلى المشاركة في الحركة الصليبية . وقد قوى من هذا الرأي بالذات أن غرب أوروبا — وبخاصة فرنسا — تعرض لأزمة اقتصادية عنيفة في أواخر القرن الحادي عشر ، الأمر الذي أدى إلى ندرة القوات وارتفاع الأسعار واشتداد الجوع حتى اضطر الفقراء إلى أكل العشب والحشائش . وفي ضوء هذه الظاهرة نستطيع أن نفسر ظاهرة الإقبال المنقطع النظير الذي لقيه الحملة الصليبية الأولى من عامة الناس والمعدمين والفقراء ، وهؤلاء جميعاً كانوا يفكرون بوحى من بطونهم لا قلوبهم وعقولهم ، عندما اختاروا طريق الشرق ، بدليل ما ارتكبوه من جرائم السلب والنهب والعدوان على الشعوب المسيحية التي مروا ببلادها في طريقهم إلى الشرق . أما المدن الإيطالية التجارية — وبخاصة الثلاث الكبرى

بيزا والبندقية وجنوا — التي أسهمت في الحروب الصليبية بدور بارز ملحوظ ؛ فلا يخفى علينا أنها كانت تجرى دائماً وراء مصالحها الاقتصادية ، وتسعى لتحقيق مكاسبها ليس على حساب المسلمين في الشرق فحسب ، بل على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على أن القوى الإيطالية التجارية لم تشارك في تلك الحروب بدافع التقوى والشعور الديني ؛ وإنما لم تتورع في أصعب الأوقات حرجاً بالنسبة للصليبيين عن إثارة الفتنة بين القوى الصليبية بعضها وبعض في سبيل تحقيق مكاسبها الخاصة .

وبالإضافة إلى هذا العامل الاقتصادي الذي ظهر أثره واضحاً في تحريك موجة الحروب الصليبية ، ينبغي ألا ننسى من حسابنا الأوضاع الاجتماعية في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر . ذلك أن النظام الإقطاعي الذي ساد أوروبا في ذلك العصر ، قضى بأن تعيش الغالبية العظمى من الفلاحين والأقنان والعامة ذليلة تحت سيطرة أقلية متحكمة من الأمراء والفرسان الإقطاعيين . ولم يكن هناك أمل أمام أولئك الكادحين للخلاص من أوضاعهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وإنما ارتبطوا

بالأرض رباطاً أبدياً ، يشقون في فلاحتهم ويخلفهم أبناؤهم في خدمتها ليقدّموا ثمرة كدهم لسادتهم من الأحكام الإقطاعيين .
لذلك لم تكد تعلو الدعوة للحرب الصليبية حتى وجدت استجابة مطلقة من غالبية العوام والفلاحين في غرب أوروبا ؛ فلبوا النداء في سرعة وحماسة لا عن وازع ديني عميق ولا تحمسا للكنيسة وطاعة لرغبتها ؛ وإنما لأنهم وجدوا في المشاركة في تلك الحركة الجديدة فرصة قلما يتيحها الزمان للخلاص من حياة العبودية والظلم التي ظلوا يرسفون في أغلالها أمدا طويلا . ومهما يتعرضوا له من مخاطر في طريقهم إلى الشام ، ومهما يكن مستوى الحياة التي سيحيونها في الشرق ، فإن الأمور لا يمكن أن تصل بهم إلى أسوأ من الحضيض الذي انحدروا إليه في بلاد الغرب .

وبالإضافة إلى هذه العوامل ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن نسبة كبيرة من أمراء غرب أوروبا وفرسانها فكروا في المشاركة في الحركة الصليبية طمعا في تحقيق جاه دنيوى أو نفوذ سياسى . والمعروف أن النظام الإقطاعى في غرب أوروبا قام في العصور الوسطى على أساس الأرض بحيث صارت مكانة كل أمير أو فارس تتحدد بما يتحكم فيه من أراض حتى قيل « لا سيد دون

أرض » . ولكن ظروف النظام الإقطاعي نفسه وتطوره أدت إلى ظهور نسبة كبيرة من الأمراء والفرسان دون أرض ، لأن القانون الإقطاعي حرص دائماً على عدم تجزئة الإقطاع بين الورثة ونص على أن الإقطاع يكون دائماً من نصيب الابن الأكبر وحده دون بقية أبناء الأمير المتوفى . ولما كان أولئك الفرسان الذين يعيشون دون أراض — في ظل نظام يستمد أهميته من الأرض — يحسون دائماً بحرج موقفهم ؛ فإنهم تحمسوا للمشاركة في الحرب الصليبية طمعا في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق والاستيلاء على أراض تعوضهم عن سوء موقفهم في الغرب .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة — اقتصادية واجتماعية وسياسية — لتجعل فئات متنوعة وجوعا غفيرة من أهالي غرب أوروبا يلبون الدعوة للحرب الصليبية ، ويجدون في تلك المغامرة الجديدة فرصة ذهبية للخلاص من ديونهم وسوء أحوالهم أو لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في الشرق . وإذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على إلصاق شارة الصليب على ثيابهم — مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية في التاريخ — فإنه ليس هناك ما يثبت أن الصليب والكنيسة والدين كانت

القوى الكبرى التى حركت مشاعرهم وجعلتهم يتحمسون لنداء البابوية . - وربما كان أقرب إلى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين — هو الأستاذ طومسون — من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى .

* * *

وثمة رأى خاطيء فى التاريخ طالما رددته أعلام المدرسة القديمة من المؤرخين والكتاب الغربيين ، هو أن المسيحيين فى الشرق الأدنى تعرضوا لعدوان فريد من نوعه فى أواخر القرن الحادى عشر ، وأن الطريق إلى بيت المقدس غدا موصداً فى وجه الحجاج المسيحيين ، مما استثار الكنيسة والناس جميعاً فى غرب أوربا وأدى إلى مولد الحركة الصليبية .

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التى قام بها المؤرخون الأوروبيون أنفسهم خطأ هذا الرأى وبعده عن الحقيقة والتاريخ . فليس حقيقيا أن المسيحيين فى البلدان الإسلامية ، تعرضوا لموجة اضطهاد وحشى فى القرن الحادى عشر ، وأن كنائسهم خربت وطقوسهم عطلت . وليس حقيقيا أن حجاج الغرب المسيحيين الوافدين إلى بيت المقدس صادفوا عننا وسوء معاملة من حكام

البلدان الإسلامية التي مروا بها. ذلك أن طبيعة الإسلام وأسلوب الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية ، كل هذه أشياء تتنافى وتلك الافتراءات .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة « فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

وإذا كانت هناك إشارات في كتب التاريخ لقيام بعض الحكام الذين عرفوا بشذوذهم — مثل الحاكم بأمر الله الفاطمي — باضطهاد أهل الذمة ، فإننا يجب أن نذكر دائماً أن هذه الحالات فردية ومؤقتة وتعد خروجاً على المبدأ العام الذي سارت عليه الدولة الإسلامية منذ قيامها ، والذي حرص دائماً أبداً على رعاية أهل الكتاب والعطف عليهم ، بل الاستعانة بهم وفتح الطريق أمامهم للوصول إلى أكبر مناصب الدولة وأخطرها . فإذا جاز أن حاكماً عرف بشذوذه خرج عن هذا الأسلوب الذي هو أسلوب الإسلام فإن الأمور كانت لا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه بعد قليل ، فيحظى أهل الكتاب بما تعودوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين .

وأخيرا ، فقد شهد شاهد من أهلهم ، عندما كتب بطرك
بيت المقدس فى القرن التاسع رسالة خاصة سرية إلى زميله بطرك
القسطنطينية ، وجاء فى هذه الرسالة بالنص القطعى « إن المسلمين
قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت » ويعلق
أحد الكتاب الغربيين المحدثين على ذلك بقوله : « إن الحق يتطلب
منا أن نعرف بأن المسيحيين عاشوا فى كنف الدولة الإسلامية ،
أسعد حالا بكثير مما كانت عليه بعض الطوائف المسيحية التى
عاشت فى كنف الدولة البيزنطية ذاتها » .



المسلمون في الشام

مرت الدولة العباسية بدور من الذبول والانحلال منذ أواخر القرن التاسع للميلاد ، فانتشرت الثورات والحركات الانفصالية بين ربوعها ؛ وظهرت على حسابها دويلات صغيرة مستقلة لا تدين بالطاعة للخليفة العباسي في بغداد أو سامراء ؛ بل لقد خضع الخلفاء العباسيون أنفسهم لأمراء مسلمين من أصل فارسي — مثل بني بويه — الذين سلبوا الخليفة سلطانه الفعلي واتخذوا لأنفسهم لقب إمرة الأمراء .

وصادف أن جاء ذبول الدولة العباسية وانحلال أمرها مصحوبا بصحوة دولة الروم أو البيزنطيين ، وهم الأعداء التقليديون للدولة الإسلامية في المشرق ، والذين كانت نار الحرب بينهم وبين العباسيين لا تهدأ حيناً إلا لتثور أحياناً . لذلك لم يكن عجباً أن يستغل أباطرة الروم فرصة انحلال الخلافة العباسية ليقوموا في القرن العاشر للميلاد بحركة هجومية توسعية ضخمة على حساب جيرانهم المسلمين ، وبخاصة في العراق والشام . وجدير بالذكر أن تلك الحرب التي شنها الروم على المسلمين

عندئذ اتخذت مسحة دينية واضحة ظهرت في الرسالة التي أرسلها
امبراطور القسطنطينية نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسي يهدده
بالاستيلاء على بلاده وهدم الكعبة ونشر المسيحية في المشرق
والمغرب جميعا .

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل عندما ظهر على المسرح
الأتراك السلاجقة ليثثوا في الدولة الإسلامية روحا جديدة
ويغذوها بدماء فتية . ذلك أن سلاطين السلاجقة لم يكتفوا
بفرض حمايتهم على الخلافة العباسية المتداعية ، وإنما نصبوا
أنفسهم حماة للمسلمين في المشرق الأدنى ضد هجمات الروم على
بلادهم . وهكذا دارت بين السلاجقة والروم حروب طاحنة
في القرن الحادى عشر للميلاد ، حتى تمكن السلطان ألب
أرسلان السلجوقى من أن ينزل هزيمة ساحقة بالإمبراطور
البيزنطى رومانوس الرابع فى موقعة مانتزكرت — فى القطاع
الشرقى من آسيا الصغرى — سنة ١٠٧١ .

والواقع أن موقعة مانتزكرت تعد من المواقع الخطيرة
الفاصلة فى التاريخ ، حيث أن الروم فقدوا فيها جيشهم بأكمله
بين أسرى وقتلى ؛ وكان من جملة الأسرى الإمبراطور
رومانوس الرابع نفسه الذى لم يفرج عنه السلاجقة إلا بشروط

قاسية . ولكنه مهما يقل عن أهمية موقعة مانتز كرت ،
وعما ترتب عليها بعد ذلك من توغل السلاجقة بعيدا في جوف
بلاد الروم ؛ فإننا لا نرى في كل ذلك شيئا جديدا يمكن
أن نعدّه سببا حقيقيا للحركة الصليبية . ذلك أنه منذ وصول
المسلمين إلى شواطئ البحر المتوسط في القرن السابع للميلاد
واتزاعهم الشام ومصر من الدولة البيزنطية ، والحروب لم تنقطع
بينهم وبين الروم . وفي بعض أدوار تلك الحرب التقليدية بين
المسلمين والروم ، أوغل المسلمون في آسيا الصغرى حتى
البسفور ؛ بل لقد حاصر الأسطول الإسلامي والجيوش
الإسلامية القسطنطينية نفسها أكثر من مرة ؛ ومع ذلك لم تقم
حرب صليبية ولم تظهر محاولة في غرب أوروبا لمنع المسلمين
من تهديد بلد هو بمثابة الباب الشرقي لأوروبا المسيحية .

وعلى ذلك أستطيع أن أقدر — مخالفاً في الرأي جمهرة
أبناء المدرسة القديمة من المؤرخين — أنه من المبالغة التاريخية
أن نربط ربطاً وثيقاً محكماً بين موقعة مانتز كرت ووصول الحملة
الصليبية الأولى إلى الشرق ؛ وأن نعد الحركة الصليبية صدى
مباشراً لموقعة مانتز كرت بالذات . فإذا كانت الهزيمة قد حلت
ساحقة بالروم في موقعة مانتز كرت ، فما أكثر الهزائم التي حلت

بالروم على أيدي المسلمين من قبل ! وإذا كان السلاجقة قد
أوغلوا بعيداً في جسم الإمبراطورية البيزنطية بعد مائتكرت ،
فما أبعد ما أوغل المسلمون في آسيا الصغرى من قبل ! وإذا
كانت إمبراطورية الروم قد استنجدت بالبابوية والغرب
الأوربي غداة الكارثة التي حلت بها في مائتكرت ، فما أكثر
ما استنجد الروم بغرب أوربا من قبل دون أن يصادف نداؤهم
استجابة من البابوية ، أو من الأمراء وعامة الناس في الغرب .
وربما كان أقرب إلى الصواب أن نبحث عن مفتاح الموقف
في الغرب لا في الشرق . فالكنيسة الغربية في أواخر القرن
الحادي عشر كانت قد خرجت أقوى مما تكون من حركة
إصلاح شاملة طهرت جهازها ودعمت نفوذها وجعلت من البابا
قوة كبرى دونه أباطرة الغرب وملوكه . ولكن هذه الطاقة
الكبرى التي تزودت بها الكنيسة كان لابد لها من منفذ
أو آخر تعبر فيه عن نفسها وتنفس به عن قوتها الجديدة
وطاقتها المكبوتة . وفي سبيل التنفيس عن تلك الطاقة الدافقة
دخلت الكنيسة الغربية في نزاع جاد مع الإمبراطورية الرومانية
المقدسة في الغرب . ولكن إثارة حرب أهلية في المجتمع الغربي
بين المسيحيين بعضهم وبعض لم يكن الطريق المثالي الذي ينبغي

أن تسلكه الكنيسة الغربية لاستنفاد حماسها والتفيس عن طاقتها المكبوتة . فلم يبق إذن سوى المسلمين لكي تتجه الكنيسة الغربية ضدهم وتحاول أن تنال لنفسها منهم ثارا قديما طالما تآقت إلى نياله منذ أن نجح المسلمون في القرنين السابع والثامن في الاستيلاء على أجزاء كانت تعز بها المسيحية ، مثل الشام ومصر وشمال إفريقيا وأسبانيا .

وكان أن بدأت الحركة الصليبية التي شنها الغرب الأوربي ضد المسلمين ؛ ولكن أولى حلقات هذه الحركة بدأت في المغرب لافي المشرق ، فشن المسيحيون حربا لا هوادة فيها على المسلمين في الأندلس وفي جزيرة صقلية . وفي تلك الحرب شاركت البابوية والكنيسة الغربية مشاركة فعالة بمجهودها وأموالها . ولم تغب هذه الحقيقة عن فطنة المؤرخين المسلمين - مثل ابن الأثير - الذي استهل كلامه عن هجوم الصليبيين على الشام في أواخر القرن الحادى عشر بالإشارة إلى أن « ابتداء ظهور دولة الفرنج واستبداد أمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها » كان بالاستيلاء على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ثم على جزيرة صقلية . وفي الوقت الذي أخذت البابوية تبارك هجمات المسيحيين على المسلمين في الأندلس وصقلية ، انبعث

لزوت استغاثة خافتة من القسطنطينية تشكو ما حل بالإمبراطورية الشرقية وحيشها وإمبراطورها على أيدي المسلمين في ما تزكرت وتطلب النجدة السريعة من الغرب لدفع خطر السلاجقة . وفي هذه المرة كانت الظروف في الغرب الأوربي مواتية لتلبية النداء ، وكانت البابوية والكنيسة الغربية على أتم استعداد لمدا نشاطها إلى الشرق ، لاسيما بعد أن رأت البابوية في ذلك فرصة ذهبية للقضاء على كيان الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وبسط سيادة البابا في روما على المسيحيين في الشرق والغرب جميعا . وهكذا دعا البابا أوربان الثاني للحرب الصليبية ضد المسلمين في الشرق سنة ١٠٩٥م ، وصادفت دعوته قبولا عاما بين مختلف طبقات الحاكمين والمحكومين للأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السابق شرحها في الفصل السابق .

* * *

وقد اعتاد المؤرخون عند كلامهم عن الحروب الصليبية أن يعنوا بثاني حملات فقط ؛ أضفوا عليها تشريفا خاصا ، ومنحوها ألقابا عديدة أكسبتها أهمية خاصة في التاريخ ؛ فيقال مثلا الحملة الأولى والثانية والثالثة . . . إلخ . والواقع أن هذه ظاهرة غريبة تستحق التأمل ، لاسيما إذا عرفنا أنه منذ وصول

الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ ، وحتى طرد الصليبيين نهائيا من الشام سنة ١٢٩١ ، لم يمر عام واحد تقريبا دون وصول جمع أو أكثر من الحجاج الصليبيين إلى الشرق . وبعض هذه المجموع فاقت في أعدادها وفي أهمية ما قامت به من أعمال في الشرق الحملات الصليبية المعروفة ؛ ومع ذلك فإنها لم تحظ بتشريف خاص أو رقم عددي يضمني عايتها شيئا من الأهمية في التاريخ . وربما كان السر في هذه الظاهرة هو أن الحملات المرفقة المشهورة إنما اكتسبت أهمية خاصة لما أصابته من نجاح أو فشل استرعى الانتباه ، أو لأنه كان على رأسها بعض الملوك والباطرة الغربيين الذين تمتعوا بشهرة خاصة في التاريخ .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لم يكد يحل ربيع سنة ١٠٩٦ حتى كانت قد خرجت من الغرب جموع غفيرة من العامة ، شقت طريقها عبر البلقان متجهة إلى الشرق . وسرعان ما أحس إمبراطور الروم وشعبه بنخبة أمل كبيرة بعد أن طلبوا من البابوية والغرب إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم في دفع خطر السلاجقة ؛ فإذا هم يفتاجئون بوصول حشود من الدهماء يعتدون على أهالي الإمبراطورية الآمنين ويسلبونهم ما يملكون .

وإزاء ذلك الخطر الجديد . أسرع إمبراطور الروم بنقل تلك
الجموع الصليبية إلى آسيا الصغرى حتى لا يمكنهم من أن يعيشوا
فساداً في عاصمته القسطنطينية . ولم يكن منتظراً أن يستطيع
أولئك العوام — الذين مجهلون أساليب الحرب واستخدام
السلاح — الصمود في وجه السلاجقة ، فقضوا عليهم وحولوهم
إلى كومة ضخمة من الأشلاء ، وكان ذلك قرب نيقية في أكتوبر
سنة ١٠٩٦ م .

على أنه إذا كان أولئك المعدمون قد فشلوا في الوصول
إلى الشام بسبب سوء تنظيمهم وجهلهم بشئون القتال ؛ فإن
الشطر النظامي من الحملة الصليبية الأولى كان مؤلفاً من فرسان
مدربين ، يقودهم أمراء مارسوا حياة القتال وأساليب الفروسية
فاستطاعوا الوصول إلى الشرق سالين سنة ١٠٩٧ م .

وقد حققت هذه الحملة الأولى المؤلفة من الفرسان والأمراء
نجاحاً منقطع النظير ، إذ نجحت في تثبيت أقدام الصليبيين بالشام
وشمال العراق ؛ مما ترتب عليه قيام ثلاث إمارات صليبية كبرى
هي إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلاً عن تأسيس
مملكة صليبية في بيت المقدس .

وهنا نلاحظ أن تلك الانتصارات السريعة العاجلة التي حققها

الصلبيون في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر لا يرجع الفضل فيها إلى قوتهم وتماسكهم وشجاعتهم ، بقدر ما يرجع إلى ضعف القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وانهلال أمورها . ذلك أن دولة السلاجقة التى حطمت قوة الروم فى ما نذكرت لم تلبث أن تعرضت للذبول السريع ، بحيث لم تكد تحل سنة ١٠٩٧ إلا وكانت قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة . وقد أدى ضعف دولة السلاجقة وما دار بين ملوكها من حروب أهلية إلى انتشار الفوضى فى بلاد الشام والعراق بوجه خاص ، حيث ظهرت الأتابكيات وهى يوت حاكمة صغيرة قد لا يتعدى نفوذ الواحدة منها مدينة صغيرة .

وفى ذلك الوقت كانت الخلافتان الإسلاميتان اللتان تتنازعان شعور المسلمين فى الشرق الأدنى ، وهما : الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، تمران بدور واضح من الضعف ، والخليفة فى كل من بغداد والقاهرة يعيش مسلوب السلطان تحت سيطرة أمير كبير أو وزير عظيم ، وقد بلغ أمر التنافس بين هاتين الخلافتين السنية والشيعية أنه فى الوقت الذى طرق الصليبيون أبواب الشام لم يحجم الفاطميون عن انتهاز الفرصة للاستيلاء على بيت المقدس وسلب السلاجقة

السنين بعض نفوذهم بالشام . وهكذا وصل الصليبيون إلى الشام في أواخر سنة ١٠٩٧ ليجدوا أمامهم قوى إسلامية ضعيفة أنهكها النزاع المذهبي وباعدت بينها الأطماع والمنافسات مما مكن الصليبيين من تحقيق مكاسب سهلة سريعة .

وليس معنى ذلك أن المسلمين في الشرق الأدنى استسلموا للصليبيين وتركوهم يستولون على بلادهم ويسبحون بين أرجائها في أمن وسلام ؛ إذ هناك من الشواهد ما يثبت قوة المقاومة التي أبداهها المسلمون لدفع عادية البغاة وطردهم من أرض العروبة . أجل ؛ خرجت الجيوش من فارس والعراق ومصر لدفع المعتدين وحاول السلاجقة والعرب جميعاً أن يصمدوا في وجه ذلك الخطر الجديد .

والواقع أن أهم ما ميز تاريخ الشرق الأدنى في تلك الحقبة كان الترابط العاطفي ووحدة الأحاسيس التي جمعت بين أبناء الشعب العربي ؛ فلا يكاد الصليبيون يستولون على بلد في الشام حتى يثور الرأي العام في بغداد ويتجمع الناس في المساجد مطالبين الخليفة والسلطان باتباع سياسة إيجابية في جهاد الغزاة ؛ ولا يكاد الناس في القاهرة أو دمشق يسمعون بتوسع الصليبيين

في شمال العراق والشام حتى تقام للآتم وتضغط الشعوب على
حكامها للخروج لدفع دعاية المعتدين .

على أنه يؤسفنا أن نقرر أن جميع تلك الجهود في ذلك
الدور الأول من أدوار الغزو الصليبي كانت جهودا فردية لم
تنظمها وحدة ولم تنسق بينها خطة شاملة ، مما أدى إلى ضياعها
عبثا دون نتيجة واضحة . وبذلك استمر الصليبيون في بلاد الشام
ينغون ويتوسعون في الاتجاه الشمالي الشرقي صوب الجزيرة
والعراق ، وفي الاتجاه الجنوبي الغربي صوب مصر ؛ فضلا عن
التوسع الصليبي في بلاد الشام ذاتها على حساب القوى الإسلامية
الصغيرة المتناثرة هنا وهناك .

ومن الواضح أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يستمر
طويلا . وسرعان ما أدرك العقلاء من المسلمين أن انقسامهم
هو سبب الكارثة التي حلت بهم وأنه لا أمل للمسلمين في الشرق
الأدنى في الاحتفاظ بكيانهم واستعادة حرية بلادهم إلا بالوحدة ؛
وحدة الهدف ، ووحدة الصف . ولم يكن طريق الوحدة بالسهل
وإنما كان طريقا صعبا شاقا مليئا بالأشواق بسبب مطامع
الحكام : وحرص كل منهم على أن يحتفظ بدائرة سلطانه دون
أن يضحى بشيء في سبيل الصالح العام للمسلمين .

ومع ذلك ، فإن دعاة الوحدة مضوا في طريقهم لا يلوون
على شيء ، حتى استطاع عماد الدين زنكي أتابك الموصل
أن يضم إليه حلب سنة ١١٢٨ ، كما ضم حماة وحمص بعد سنوات
قليلة ، وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة لتجمع بين شمال
العراق وشمال الشام . وسرعان ما جنى المسلمون ثمار هذه
الوحدة الصغيرة عندما استطاع زنكي الاستيلاء على الرها سنة
١١٤٤ ، وبذلك فقد الصليبيون أول إمارة لهم أسسوها
في الشرق ، مما يعتبر إيذانا بانتهاء البناء الصليبي بأكمله .
وقد أدرك نور الدين محمود — بن زنكي — أن تلك
الوحدة الجزئية التي حققها أبوه زنكي بين شمال العراق وشمال
الشام لا تكفي لتحقيق آمال المسلمين في الحرية ، وأن طرد
الغزاة الصليبيين من الشام لا يتأتى إلا عن طريق تحقيق جبهة
قوية إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل . وكانت العقبة الكبرى
في طريق الجبهة هي دمشق التي أصم حكامها الانفصاليون آذانهم
عن قضية الوحدة ، بل إنهم لم يتورعوا عن مخالفة الصليبيين
ضد إخوانهم المسلمين حرصا على جاههم وملكهم . ولكن
تيار الوحدة كان دائما أقوى من أن يستطيع حاكم انفصالي
خائن وقفه ، فثار أهل دمشق الأبرار على حكامهم الخونة ،

ومدوا أيديهم لنور الدين محمود الذى تمكن من ضم دمشق سنة ١١٥٤ ، وبذلك ازدادت الجبهة الإسلامية قوة ، ولم يبق إلا مصر لتكتمل هذه الجبهة .

ومن الواضح أن الصليبيين بالشام لم يكونوا ليتركوا الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد فى سهولة من الفرات إلى النيل ، لأن معنى استيلاء نور الدين محمود على مصر — فضلا عن دمشق وحلب والموصل — هو أن مملكة بيت المقدس الصليبية بالذات ستقع بين شقى الرحى . وكانت الخلافة الفاطمية فى مصر عندئذ — بعد منتصف القرن الثانى عشر — تعاني فعلا آلام الموت البطيء ؛ مما جعل مصر تبدو غنيمة سهلة أمام نور الدين والصليبيين جميعا . لذلك اشتد التسابق بين الطرفين حول الفوز بمصر ، وقامت جيوش نور الدين والصليبيين بغزو مصر أكثر من مرة ؛ حتى انتهى السباق بفوز نور الدين بمصر سنة ١١٦٩ . ولم يلبث أن مات الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر بعد أن تم رسميا تحويل مصر للمذهب السنى ؛ وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد من الفرات إلى النيل ، وعلى رأس هذه الجبهة رجل قوى جمع فى قبضته بين القاهرة ودمشق وحلب والموصل ؛ هو نور الدين محمود الذى لم يبق أمامه سوى توجيه

جهود المسلمين في الشرق الأدنى لطرد الغزاة الطامعين .
ويبدو أن أهم ماتمخضت عنه حوادث الصراع بين نور الدين
والصليبيين حول الفوز بمصر هو ظهور شخصية صلاح الدين
على المسرح . وقد أجمعت المراجع المعاصرة — العربية وغير
العربية — على امتداح شخصية صلاح الدين وبطولته ومثابرته
على الجهاد وكرم أخلاقه ورحمته واعتداله ، الأمر الذي جعل
منه الشخصية الكبرى البارزة في تاريخ الحروب الصليبية . وكان
أن شاءت الأقدار أن يخلف صلاح سيده نور الدين في دولته
ويرثه في سياسته ، وعندئذ وضع صلاح الدين لنفسه برنامجا
ضخما يتلخص في التمكين لنفسه أولا ثم في مواصلة سياسة الجهاد
ضد الصليبيين بعد ذلك . ولم تكد تحل سنة ١١٨٦ حتى كان
صلاح الدين قد أصبح القوة الكبرى في محيط الشرق الأدنى
بعد أن قضى على المؤامرات الداخلية ووحّد القوى الإسلامية
تحت زعامته ؛ وبذلك أمكنه أن ينزل ضربة كبرى بالصليبيين
في موقعة حطين سنة ١١٨٧ .

والواقع أن موقعة حطين كانت أضخم من مجرد هزيمة
حرية حلت بالصليبيين . لقد كانت في حقيقة أمرها كارثة شاملة
بعد أن فقد الصليبيون فيها زهرة فرسانهم بين أسرى وقتلى ؛

ووقع ملك بيت المقدس نفسه ومجموعة من كبار أمراء الصليبيين
وفرسانهم أسرى في قبضة صلاح الدين . وفوق هذا وذاك ،
فقد كانت موقعة حطين تجربة ظهرت فيها أخلاق صلاح الدين
على حقيقتها ؛ كما وضحت فيها مواهبه العسكرية وضوحاً تاماً .
ذلك أنه أبى إلا أن يكرم أسرى الصليبيين في كل بلد استولى
عليه ، فحرم على جنوده الاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم وسمح
لهم بالخروج آمنين سالمين إلى حيث شاءوا من المدن الصليبية
الأخرى القريبة . فإذا فرض أموالاً على الأسرى مقابل
إطلاق سراحهم ، فإنه كان يحرص على إعفاء فقراء الصليبيين
من ذلك المال ؛ وبذلك استطاع صلاح الدين — كما يقول
أحد المؤرخين الأوربيين — أن يلحق البرابرة الغربيين درساً
في الأخلاق كانوا في أشد الحاجة إليه . ثم إن مهارة صلاح الدين
الحرية بدت في أنه لم يضع ثمرة انتصاره في حطين ، وإنما بادر
بتعقب الصليبيين فاستولى على ما كان بأيديهم من مدن وموانئ
ساحلية جنوبى عكا ليقطع الصلة بينهم وبين الغرب الأوروبى ؛ كما
استولى على مدينة بيت المقدس ذاتها سنة ١١٨٧ .

وهكذا بدا أن البناء الصليبي الكبير الذى أخذ الدخلاء
في تشييده فى الشرق الأدنى منذ أواخر القرن الحادى عشر

قد تصدع فجأة وتعرض للانهيال السريع . ولكن على الرغم من تسامح صلاح الدين المطلق مع الصليبيين وحرصه على عدم مؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم من جرائم عند استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ فإن أخبار حطين وضياع بيت المقدس أثارت الشعور العام في غرب أوروبا . ولم تلبث أن وصلت إلى الشرق الحملة الصليبية الثالثة وعلى رأسها ثلاثة من أعظم حكام الغرب في ذلك الوقت : هم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيلب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا . وقد قدر للإمبراطور فردريك بربروسا أن يفرق في أحد أنهار آسيا الصغرى وبذلك لم يصل إلى الشام وتشتت رجاله . أما فيلب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصل إلى الشام في أبريل سنة ١١٩١ ، فبادر على الفور بمساعدة الصليبيين الذين كانوا يحاصرون عكا ؛ حتى إذا ماسقطت عكا في أيديهم اعتذر ملك فرنسا بمرضه وعاد إلى بلاده في الغرب .

على أن أبرز رجال الحملة الصليبية الثالثة كان بدون شك ريتشارد قلب الأسد صاحب الدور المشهور مع صلاح الدين . ذلك أن ريتشارد ألفى نفسه بعد عودة ملك فرنسا الزعيم الأوحده للصليبيين بالشام ، فقام بمجهود كبيرة لمحاولة إعادة

الموقف في الشام إلى ما كانت عليه قبل موقعة حطين . وإذا كان ريتشارد قد استطاع الاستيلاء على بضعة مراكز — مثل حيفا وقيسارية وأرسوف — إلا أنه فشل في الاستيلاء على بيت المقدس ، وهى الهدف الأول للصليبيين بالشام . هذا إلى أن صلاح الدين لم يترك ريتشارد يتحرك حراً طليقاً ، وإنما أخذت جيوش المسلمين تطارد الصليبيين وتوقع بهم وتنزل بهم الخسائر الجسيمة .

وأخيراً أدرك ريتشارد أن خسائره فاقت ما حققه من مكاسب ، وأن الحرب طالت مع المسلمين دون تحقيق نتائج واضحة . هذا فى الوقت الذى مرض فيه ريتشارد من ناحية ، وتطلبت أوضاع بلاده فى الغرب عودته من ناحية أخرى . لذلك أرسل ريتشارد إلى صلاح الدين يطلب الصلح ويقول « إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية . وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين . وقد أخذ هذا الأمر حقه . . . ونصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم ! ! » . وهكذا دخل الفريقان فى مفاوضات أدت إلى عقد صلح الرملة فى أوائل سبتمبر سنة ١١٩٢ ، وهو الصلح الذى حفظ للمسلمين بيت المقدس مع السماح لحجاج المسيحيين بحرية الحج

والزيارة ؛ في الوقت الذي احتفظ الصليبيون بالمنطقة الساحلية
الممتدة من صور إلى يافا . وبعد عقد الصلح عاد ريتشارد إلى
بلاده في حين توفي صلاح الدين في العام التالي — مارس سنة
١١٩٣ — بعد أن أنزل بالصليبيين ضربة لم يفيقوا منها مطلقاً
حتى تم طردهم نهائياً من بلاد الشام بعد قرن من الزمان^(١) .

(١) للوقوف على التفاصيل ؛ انظر : سيد عبد الفتاح عاشور :
الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٧٠ — ٩٠١ .

مصر والحروب الصليبية

خرج الصليبيون من الأحداث التي صحبت مولد الجهة الإسلامية المتحدة الممتدة من الفرات إلى النيل بفكرة واضحة عن أهمية مصر بالنسبة لسلامة بقائهم في الشام . ثم جاء ظهور صلاح الدين على المسرح وبلاؤه ضد الصليبيين ليزيد هذه الفكرة رسوخاً ، لا سيما بعد أن رأى الصليبيون بأعينهم أن صلاح الدين استمد من مصر بالذات القوة الرئيسية التي مكنته من توجيه ضرباته القاصمة ضد الصليبيين . وأخيراً انتهت الحملة الصليبية الثالثة بالفشل سنة ١١٩٢ ومات صلاح الدين بعد قليل ، ولكن بعد أن آمن الصليبيون إيماناً لا يتزعزع بأن مفتاح بيت المقدس يوجد في القاهرة ، وأنه لا بقاء لهم بالشام إلا إذا أمنوا جانب مصر أولاً .

ومهما يقل من أن تفكير الصليبيين في غزو مصر قديم يرجع إلى سنة ١١١٦ عندما قام بلدوين — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — بحملة استكشافية أوصلته إلى أيله وسيناء والفرما وتنيس ؛ فإنه يلاحظ أن الحملات التي قام بها

بلدوين الأول — أو الملك عمورى الأول بعد ذلك —
للاستيلاء على مصر ، كانت حملات محلية خرجت من فلسطين
دون أن يسهم الغرب الأوربي فيها بنصيب واضح يدل على
إدراك القائمين على أمر الفكرة الصليبية في الغرب لأهمية
مصر بالنسبة لبقاء الصليبيين بالشام . وهذا يختلف إلى حد
كبير عن التطور الذى طرأ على الفكرة الصليبية نفسها بعد
الحملة الصليبية الثالثة و وفاة صلاح الدين ؛ إذ آمن غرب أوربا
بأن مصر يجب أن تكون الهدف الأول للحملات الصليبية
الكبرى التى تخرج إلى الشرق . وقد ظهر هذا الاتجاه واضحاً
فى أقوال وكتابات دعاة الحروب الصليبية فى الغرب منذ أوائل
القرن الثالث عشر ؛ فهم حيناً يشبهون مصر بأنها مخزن
الإمدادات بالنسبة للمسلمين فى الشرق الأدنى ، وأحياناً يشبهونها
بأسها رأس الأفعى الذى يجب قطعه للقضاء على المقاومة الإسلامية ؛
إلى غير ذلك من التشبيهات التى تدل على أن مصر بالذات غدت
حجر الزاوية بالنسبة للمشروعات الصليبية منذ نهاية القرن الثانى
عشر وأوائل القرن الثالث عشر .

ولم يلبث أن شهد القرن الثالث عشر عدداً من الحملات
الصليبية قصدت مصر بغية القضاء فيها على قلب المقاومة الإسلامية .

والواقع أن البابوية وأهل غرب أوروبا لم يرضوا عن نتيجة الحملة الصليبية الثالثة وعزَّ عليهم أن تظل بيت المقدس بأيدي المسلمين ، فتم إعداد الحملة الصليبية الرابعة بسرعة ، ووضعت خطتها على أن تتجه ضد مصر مباشرة . ولكن انحراف الحركة الصليبية عن أهدافها وتغلب المصالح التجارية والاقتصادية على الصالح الديني ، جعل البنادقة يحولون وجهة هذه الحملة ضد القسطنطينية — وهو البلد المسيحي الآمن — فدخله الصليبيون ليعيشوا فيه فسادا ويعتدوا على كنائسه وأهله .

ولم ترض البابوية أيضا عن تلك النهاية التي آل إليها أمر الحملة الصليبية الرابعة ، فعادت تدعو لحملة جديدة ، هي الحملة الخامسة التي اتجهت إلى شواطئ مصر سنة ١٢١٨ . وكان أن وصل الصليبيون إلى الدلتا ، فنصبوا معسكرهم من السنة المذكورة على الضفة الغربية للنيل ، في مواجهة مدينة دمياط . على أن الصليبيين ارتكبوا عدة أخطاء دلت على جهلهم بطبيعة البلاد ؛ أولها أنهم رسوا على الضفة الغربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية التي تقع عليها مدينة دمياط ذاتها ، مما كلفهم غناء كبيرا في عبور النيل بعد ذلك . وإذا كان الصليبيون قد تمكنوا من التغلب على هذه الصعوبة ، كما نجحوا في الاستيلاء على دمياط ذاتها في نوفمبر

سنة ١٢١٩ بعد حصار تسعة أشهر أبدت فيها المدينة وأهلها
بسالة نادرة ؛ فإن الغلطة الثانية الكبرى التي ارتكبتها الصليبيون
أضاعت قيمة انتصارهم الأول .

ذلك أن الصليبيين لم يبادروا عقب استيلائهم على دمياط
بالزحف مباشرة على القاهرة ، وإنما أضاعوا أشهراً طويلة
بلا عمل في دمياط ، حتى كان شهر أغسطس سنة ١٢٢١ وعندئذ
أخذوا يتحركون جنوباً بحذاء النيل صوب القاهرة . وهكذا
أثبت الصليبيون جهلاً تاماً وعدم دراية مطلقة بأحوال مصر ،
بعد أن اختاروا موسم الفيضان وطريق النيل الزراعى للزحف
إلى داخل البلاد ؛ فضلاً عن حرارة أغسطس . ولم يلبث
السلطان الكامل الأيوبي أن استغل تلك الظروف المواتية ،
فأمر بقطع السدود « وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان »
فلم يشعر الغزاة بأنفسهم إلا وقد أحاطت بهم مياه الفيضان من
كل ناحية ، فأرسلوا إلى السلطان الكامل يطلبون الصلح ،
وأسرعوا بالعودة إلى بلادهم تلاحقهم خيبة الأمل ومرارة
الفشل .

وعلى الرغم من أن الامبراطور فردريك الثانى — الذى
أتى إلى الشرق على رأس الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ —

استطاع أن يحصل على بيت المقدس من المسلمين عن طريق
المفاوضة وحسن السياسة ، إلا أن الغرب الأوربي لم يقنع ببيت
المقدس ، وظل يحلم بالاستيلاء على مصر ذات الموقع الفريد
والثروة الوفيرة . وزاد من غضب الغرب ونقمة أن المسلمين
عادوا واستردوا بيت المقدس سنة ١٢٢٤ ، مما أدى إلى تجمع
حملة صليبية جديدة — هي الحملة الصليبية السابعة — التي تزعمها
لويس التاسع ملك فرنسا .

ولم يحاول الملك لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التي
أخذتها الحملة الصليبية الخامسة قبل ذلك بثلاثين سنة ، فوقع
في نفس الأخطاء التي وقعت فيها تلك الحملة ، مما عرض لويس
وحملته لمصير مشابه من الفشل والخيبة . ذلك أن الصليبيين نزلوا
في أوائل يونية سنة ١٢٤٩ على الضفة الغربية للنيل ، وإن كانوا
في تلك المرة لم يصادفوا صعوبة كبيرة في الانتقال إلى الضفة
الشرقية ثم في الاستيلاء على مدينة دمياط ذاتها .

ومرة أخرى أضاع الصليبيون في دمياط خمسة أشهر كاملة
استطاع فيها السلطان الصالح نجم الدين أيوب — رغم مرضه —
أن يتخذ كثيراً من الإجراءات الدفاعية وبخاصة قرب المنصورة.
ولم يكد الصليبيون يشرعون في الزحف من دمياط جنوباً

فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ حتى توفى السلطان الصالح أيوب ، فقامت زوجته شجرة الدر بدورها البارز الذى سجله لها التاريخ ، واستمرت الاستعدادات الدفاعية تسير سيرها الطبيعى دون أن يعلم عامة الناس بوفاة السلطان .

على أن لويس التاسع أخطأ عندما اتبع طريق النيل فى الزحف على القاهرة ، وهو طريق كثير القنوات والترع والمياه ، ولا بد لسالكه من دراية تامة بأحوال البلاد . ولو سلك لويس طريق الصحراء الشرقية لاستطاع أن يتجنب المصير السيء الذى تعرضت له الحملة الصليبية الخامسة قبل ثلاثين سنة . ذلك أن رجال لويس ما كادوا يصلون إلى نقطة تفرع بحر أشموم — أو البحر الصغير — من النيل ، حتى وجدوا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، بعد أن اشتدت هجمات المسلمين عليهم ، وباتت خطوط مواصلاتهم مع قاعدتهم فى دمياط مهددة بالانقطاع . وفى المنصورة حلت الكارثة بمقدمة الجيش الصليبي التى تعجل رجالها عبور النهر ، فأحاط بهم المسلمون وأجهزوا على معظمهم ، مما جعل لويس التاسع يحاول الانسحاب بسرعة ومعه بقية جيشه عائدين إلى دمياط .

وكانت عملية الانسحاب شاقة وخطيرة فى مثل تلك الظروف،

إذ لحق المماليك بالصلبيين يطاردونهم حتى وقعت الواقعة الكبرى بين المسلمين والصلبيين عند فارسكور في أبريل سنة ١٢٥٠ . وفي تلك الموقعة انتهى أمر الجيش الصليبي كله إلى القتل أو الأسر ؛ وكان من جملة الأسرى الملك لويس التاسع نفسه وكبار أمراءه المرافقين له . ولم يطل أسر لويس التاسع في المنصورة ، إذ تم الإفراج عنه بعد دفع غرامة مالية كبيرة ؛ وعندئذ غادر الملك الفرنسي مصر ليقتضى بضع سنوات في الشام محاولاً تنظيم صفوف الصليبيين والقيام بأعمال تمحو ما لحق به من عار على ضفاف النيل (١) .

* * *

وثمة أهمية خاصة لحملة لويس التاسع على مصر ، هي أن أحداث هذه الحملة جاءت مصحوبة بتطور داخلي خطير أدى إلى زوال دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام . والواقع أن المماليك أحسوا بأهمية الدور الذي نهضوا به في تخليص مصر من خطر لويس التاسع وحملته ، فازدادوا نفوذاً وسطوة

(١) للوقوف على التفاصيل انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ — ١١٠٣ .

عقب موقعى المنصورة وفارسكور ؛ الأمر الذى مكنهم من قتل
توران شاه — بن الصالح أيوب ووريثه — والاستيلاء على زمام
الحكم فى مصر .

وسرعان ما أثبت المماليك أنهم قادرون على القيام بدورهم
كاملا فى حماية الوطن العربى فى الشرق الأدنى ضد الأخطار
الكبرى التى هددته منذ منتصف القرن الثالث عشر . وقد أتى
الخطر الأكبر من ناحية مغول هولاكو الذين لم يكتفوا
بالاستيلاء على فارس وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة العباسية
فيها سنة ١٢٥٨ ؛ وإنما أخذوا يتطرقون إلى الشام بغية ابتلاعها
ثم ابتلاع مصر هى الأخرى .

ولا يخفى علينا أن مغول فارس كانوا وثنين عندئذ ، الأمر
الذى جعل الصليبيين فى الشرق الأدنى ينظرون إليهم وإلى
حركتهم التوسعية نظرة رضا وأمل ، لعلهم يعتنقون المسيحية
فى يوم قريب ، وعندئذ تصبح تلك القوة الكبرى أداة سهلة
تمكن الصليبيين من تحقيق مشروعاتهم فى الشرق الأدنى على
حساب أهل البلاد من المسلمين .

ولكن مصر التى أخذت على عاتقها فى ذلك الدور من أدوار

الحروب الصليبية مهمة الدفاع عن الكيان العربى فى الشرق الأدنى ، لم تسكت عن تهديد المغول وتوغلهم فى الشام ؛ فتمكن قطز سلطان المماليك من إزال ضربة قاصمة بالمغول فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، فقتل معظمهم وفر الباقون « وولوا الأدبار لايوون على شىء » على قول المؤرخ أبى المحاسن .

وإذا كان مغول فارس لم يكفوا بعد ذلك عن تهديد بلاد الشام بين حين وآخر ، فإن سلاطين المماليك فى مصر وقفوا لهم بالمرصاد وحالوا بينهم وبين مايشتهون . ولكن خطر المغول لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد الوطن العربى فى الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ؛ إذ ظل الصليبيون قابعين فى الشام يتربصون بأهل البلاد الدوائر ويحتلون أرضا عزيزة على كل عربى . لذلك وضع سلاطين المماليك فى مصر لأنفسهم سياسة خارجية واضحة تتلخص فى تطهير أرض الشام من الدخلاء الغاصبين وتأمين العرب فى أوطانهم وبلادهم . وفى سبيل تنفيذ هذه السياسة ضخت مصر بجميع طاقاتها البشرية ، والمادية ، فكانت الجيوش والحملات تخرج منها مرة بعد أخرى لمتازلة المغول حيناً ومحاربة الصليبيين أحياناً .

والملاحظ أن الصليبيين أنفسهم فى بلاد الشام كانوا قد بلغوا

درجة واضحة من التفكك والانحلال في النصف الأخير من القرن الثالث عشر . وعلى الرغم من أنهم فقدوا كثيرا من حصونهم وممتلكاتهم عندئذ ، إلا أنهم ظلوا يحتفظون بثلاث مدن كبرى هي أنطاكية وطرابلس وعكا ، فضلا عن عدد كبير آخر من المدن والحصون . وقد بدأ السلطان الظاهر بيبرس حربه الشاملة ضد الصليبيين سنة ١٢٦٥ فاستولى على عدد كبير من المدن والحصون والمعاقل الصليبية بالشام ، حتى توج أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨ .

ولا تخفى علينا أهمية عودة أنطاكية إلى أحضان أصحابها العرب إذ كانت هذه المدينة مركزا لإمارة صليبية كبرى هي ثاني إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى عند نهاية القرن الحادي عشر ، فجاء ضياعها من قبضة الصليبيين دليلا آخر على تعذر بقاء الدخلاء في الشام . ثم إن استيلاء المسلمين على أنطاكية كان له أثره في رفع روحهم المعنوية وتشجيعهم على مواصلة الجهاد لطرد الغزاة الغربيين نهائيا من بلاد الشام . وتشير المراجع إلى كثرة أسرى الصليبيين في أنطاكية حتى بلغوا مائة ألف أسير ، وإلى وفرة الغنائم حتى « قسمت النقود بالطاسات » على المجاهدين .

والواقع أن جهود يبرس ضد الصليبيين بالشام كانت الحلقة الأولى في المعركة الحتامية التي انتهت بتطهير أرض الشام من الدخلاء الغاصبين . ولم يلبث السلطان المنصور قلاوون أن استأنف سياسة الجهاد بنفس القوة والإيمان ، فوجه جيشاً من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة ضد طرابلس سنة ١٢٨٩ ، « وضايقها مضايقة شديدة » بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقاؤون ينقبون أسوارها . وقد حاول الصليبيون بالشام أن يتناسوا ما بينهم من خصومات ويقوموا بمحاولة لإتقاذ طرابلس ، ولكن جهودهم باءت بالفشل ، واستطاع قلاوون وجنوده الاستيلاء على المدينة في ٢٦ أبريل سنة ١٢٨٩ . ولم يتمكن من النجاة من الصليبيين في طرابلس سوى قلة قليلة ، وهؤلاء فروا في المراكب . ومهما يكن من أمر ، فإنه لم يتبق للصليبيين — بعد سقوط طرابلس — سوى مدينة عكا ، فضلاً عن بعض المراكز الصغرى الأقل أهمية مثل صيدا وصور وعثليث . وإذا كان الموت لم يشأ أن يمهل السلطان قلاوون ليحقق أمنيته في طرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، فإن ابنه السلطان الأشرف خليل تعهد بإتمام الرسالة حتى نجح في الاستيلاء على عكا في مايو سنة ١٢٩١ .

وكانت عكا آخر مدينة كبرى باقية للصليبيين بالشام ، فضلا
عن أنها غدت مركز مملكة بيت المقدس الصليبية منذ استيلاء
المسلمين على بيت المقدس ؛ ولذلك أدرك الصليبيون أن ضياعها
يعنى نهاية عهدهم بالشام ، فحاولوا صرف الأشرف خليل
بن قلاوون عن قصده . ولكن السلطان الأشرف صمم على تنفيذ
غرضه فحشد جيشاً كبيراً قدره المؤرخون بستين ألفاً من
الفرسان ومائة وستين ألفاً من المشاة ، واجتمع ذلك الجيش
الضخم أمام عكا في أوائل أبريل سنة ١٢٩١ . ولم يجد الصليبيون
قوة قرية يستنجدون بها سوى قبرس ، فأتى ملك قبرس
لنجدتهم في عكا ومعه قدر لا بأس به من المحاربي والإمدادات
والمؤن . ولكن كل هذه الإجراءات لم تكف لصد المسلمين
الذين نجحوا في اقتحام عكا في مايو سنة ١٢٩١ ؛ وعندئذ وجد
الصليبيون أنفسهم داخلها ولا عاصم لهم : فالمسلمون أمامهم
والبحر من ورائهم . وكان أن هرع بعض الصليبيين إلى السفن
الراسية في ميناء عكا ، ولكن السفن لم تتسع لطالبي النجاة
بأرواحهم ، فغرق بعضها في البحر بسبب كثرة الحمولة .

ولم يكن منتظرا أن تتمكن بقية المعاقل الصليبية الباقية

بالشام من الثبات ، فاسترد المسلمون مدينة صور وغيرها من
البقايا الصليبية في سهولة . وبذلك زالت دولة الصليبيين نهائيا
بالشام ، وزال أمر تلك الجموع من الغزاة الغربيين ؛ وعادت بلاد
الشام لا يقطنها إلا أبناءها الأصليون ولا يتمتع بنحيراتها إلا أصحابها
الحقيقيون .



الغرب الأوربي وسياسة الحصار الاقتصادي

كان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين قد اعتبروا إذا الحركة الصليبية حركة استعمارية ضخمة قام بها الغرب الأوربي في العصور الوسطى للتسلل إلى باطن الوطن العربي ، فإننا نضيف إلى ذلك أن الاستعمار أثبت دائماً أنه لا يتعلم وأن أساليبه لم تتغير على مر العصور .

ذلك أن الاستعمار يلجأ إلى استخدام القوة والعنف لسلب أصحاب الحق حقهم ؛ فإذا فشل أسلوب القوة لجأ الاستعمار إلى سياسة الخنق الاقتصادي محاولاً أن يؤثر في كيان الأحرار وأن يفت في عضدهم . هذا هو الأسلوب الذي لجأ إليه الاستعمار في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أيام المعركة الصليبية ؛ وهذا هو الأسلوب نفسه الذي لجأ إليه الاستعمار بعد ستة قرون — أي في القرن العشرين — أيام معركة السويس . وفي كلتا الحالتين باء الاستعمار بالفشل والهزيمة لأن أسلوب الضغط لا يجدي مع المؤمنين الأحرار .

والواقع أن الغرب الأوربي لم يكد يسمع نبأ استيلاء

السلمين على عكا سنة ١٢٩١ وطرء آخر البقايا الصليبية من الشام حتى ثارت ثائرتة وحن جنونه ، فأخذ يفكر فى فرض حصار اقصادى على شواطىء مصر والشام ليحرم دولة المماليك من نشاطها التجارى الواسع الذى هو أساس قوتها ومصدر ثروتها . والمعروف أن غزوات المغول فى القرن الثالث عشر أدت إلى تعطيل طرق التجارة الآسيوية بين الشرق والغرب ، ولم يبق آمنا من هذه الطرق سوى طريق مصر والبحر الأحمر ؛ مما مكن المماليك من احتكار تجارة الشرق الأقصى والحصول على ثروة طائلة مكنتهم من بناء قوة حرية ضخمة .

كذلك يلاحظ أن أى بلد فى العالم — وبخاصة فى العصور القديمة والوسطى — كان لا يمكنه أن يكفى نفسه بنفسه ؛ وأن طبيعة الحياة الاقتصادية الدولية اعتمدت على أن يقوم كل بلد بتصدير الفائض من إنتاجه واستيراد ما ينقصه من مواد أولية وغير أولية . وقد دأبت مصر فى عصر الحروب الصليبية بالذات على استيراد كثير من المواد الأساسية اللازمة لصناعة السفن — مثل الحديد والخشب والكبريت والقار — فضلا عن بعض المواد الغذائية مثل القمح والزيت وغيرها . هذا كله بالإضافة إلى الرقيق الأبيض الذى كان الدعامة الكبرى التى قام عليها

نظام الممالك في مصر ؛ والذي كان يستورد من بلدان غرب آسيا وجنوب أوروبا .

ومها يقل عن أن الصليبيين أخذوا يحاولون تطبيق سياسة الحصار الاقتصادي على مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر ، فإنه من الواضح أن غرب أوروبا لم يتخذ خطوات فعالة في هذا الصدد إلا بعد استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ وطرده آخر البقايا الصليبية من الشام . ذلك أن البابا نيقولا الرابع أراد — عقب سقوط عكا — أن يستثير الغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية كبرى جديدة ؛ ولما وجد تراخيا وعدم استجابة لمشروعه ، أصدر قراراً بابويا سنة ١٢٩٢ بتوقيع عقوبة الحرمان على كافة المدن والجمهوريات والدول المسيحية التي تتعامل تجارياً مع الممالك . وجدير بالذكر أن هذا المرسوم البابوي حرم تصدير الرقيق والخيول وبعض المواد الأولية كالحديد والأخشاب والكبريت والقار إلى مصر . وقد أضاف البابا بونيفيس الثامن سنة ١٢٩٩ إلى المواد السابقة القمح والزيت والنبيد ، وكانت مصر تستوردها جميعاً في تلك العصور . على أن هذه القرارات البابوية التي قصد بها فرض حصار اقتصادي على مصر ، كان من الصعب تنفيذها مادامت البابوية

لا تمتلك قواعد صليبية في شرق حوض البحر المتوسط تمكنها من مراقبة شواطئ مصر والشام ويتخذها الغرب الأوربي مراكز ثابتة يهدد منها تجارة المسامين وبخاصة في مصر والشام. هذا فضلا عن ضرورة وجود قوة بوليسية بحرية تمكن البابوية من مراقبة شواطئ مصر للتأكد من أن الجمهوريات الإيطالية ذات المصالح الاقتصادية الكبرى مع مصر قد احترمت قرار المقاطعة .

أما عن الخطوة الأولى فيلاحظ أن جزيرة قبرس قامت فيها أسرة حاكمة صليبية منذ أواخر القرن الثاني عشر — أي منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة وريتشارد قلب الأسد . وقد أخذت هذه الأسرة الحاكمة في جزيرة قبرس — وهي أسرة لوزجنان — على عاتقها مهمة مساندة الصليبيين بالشام طوال القرن الثالث عشر ، حتى إذا ما استولى المسلمون على عكا سنة ١٢٩١ وتم طرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، عندئذ غدت جزيرة قبرس تحت حكم ملوكها من آل لوزجنان أكبر مركز للصليبيين بالشرق . ومن هذا المركز المطلق على شواطئ مصر والشام وآسيا الصغرى استمرت الذبول الرئيسية للحركة الصليبية في الشرق الأدنى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

وأما عن الخطوة الثانية الخاصة بضرورة إنشاء قوة بوليسية بحرية تمكن البابوية من مراقبة شواطئ مصر ، فإن هنري الثاني لوزجنان ملك قبرس تقدم في أوائل القرن الثالث عشر بمشروع صليبي هام إلى البابا كلمنت الخامس ، طالب فيه بإنشاء قوة صليبية دولية تقوم بفرض حصار بحري على شواطئ مصر والشام لمدة عامين أو ثلاثة ، بشرط أن تكون هذه القوة مستقلة تماما عن الجمهوريات الإيطالية التي تشكك هنري الثاني في ولائها للصالح الصليبي. وقد رأى الملك هنري لوزجنان أن ذلك الحصار كفيل بإضعاف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بأرض مصر نفسها ، حتى إذا ما تم ذلك أصبح فتح الشام والاستيلاء على بيت المقدس أمرا هيناً .

والواقع أن هنري الثاني ملك قبرس لم يكن مبالغا في تفكيره ولم يخطئ في إساءة بالظن بالجمهوريات الإيطالية التجارية ، لأن البندقية نفسها لم تستطع صبرا على قطع علاقاتها التجارية مع سلطنة المماليك وأرسلت مبعوثا إلى البابا كلمنت السادس تشرح له أن حياتها متوقفة على نشاطها التجاري وأن منعها من التجارة مع مصر بالذات عاد عليها بالخسارة والضعف ، الأمر الذي جعلها تلتمس من البابا السماح لها باستئناف علاقاتها التجارية مع دولة

الممالك . وكان أن استجاب البابا للرجاء وسمح للبندقية بالتجارة في غير البضائع المحظورة وذلك لمدة خمس سنوات تبدأ من سنة ١٣٤٤ .

ومهما يكن من أمر ، فإن جزيرة قبرس وملوكها حملوا لواء الحرب الصليبية في الشرق الأدنى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وإذا كان ملوك قبرس الأوائل لم يستطيعوا القيام بعمل إيجابي ضد المسلمين في الشرق الأدنى ، فإن الملك بطرس الأول لوزجنان قام بحملة صليبية كبرى على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ .

وقد مهد الملك بطرس حملته بالقيام برحلة طويلة في غرب أوروبا ، جمع فيها ما استطاع جمعه من السفن والرجال والمال والعتاد ، حتى إذا ما اكتملت استعداداته دهم الإسكندرية في يوم جمعة والمسلمون في المساجد . وكان أن استطاع الصليبيون اقتحام الإسكندرية في غير صعوبة ، فدمروا البيوت والمساجد والخانات ، ونهبوا الأسواق والمتاجر ، واعتدوا على النساء والبنات ، حتى لقد بلغ من وحشيتهم أنهم كانوا يقتلون الطفل على صدر أمه ثم يذبونها بعد ذلك .

غير أن الصليبيين لم يستطيعوا الاحتفاظ بالإسكندرية

طويلا ، فبعد أن قضوا بالإسكندرية ثلاثة أيام تعد من أسوأ الأيام التي مر بها الثغر في تاريخه الطويل ، أسرعوا بالرحيل بعد أن أتوا على كل ما بالإسكندرية من « صامت وناطق » . وربما كان السبب في إسراع الصليبيين بالرحيل أنهم أحسوا باقتراب الجيش المصرى الذى أسرع من القاهرة لتخليص الإسكندرية من قبضة الغزاة . ويقال إن الصليبيين أخذوا معهم عند جلائهم عن الإسكندرية خمسة آلاف أسير ، فضلا عن قدر ضخم من البضائع المنهوبة ، حتى ضاقت سفنهم بمن فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها فى البحر لتخف وتستطيع مواصلة رحلتها .

ثم إن ملوك قبرس لم يكتفوا بمهاجمة الإسكندرية وغيرها من الموانئ الإسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط مثل طرابلس ، وإنما استغلوا موقع جزيرتهم فى شن حرب دائبة على ذلك النفر من التجار الأوربيين الذين استمروا يتاجرون مع مصر والشام ؛ فكانت سفن قبرس تترصد لهم فى عرض البحر فى طريقهم إلى مصر ومنها ، وتفتك بهم أشد فتك . وهكذا استمر أهل قبرس « يفسدون فى البحر » على قول المؤرخ العينى ، ويقطعون الطريق على المراكب الآتية إلى دمياط

أو الاسكندرية ؛ علماً منهم بأن سياسة الحصار الاقتصادي هي أقوى سلاح لإضعاف مصر والشام بعد أن فشلت محاولة الغزو الحربي .

ولم تستطع مصر احتمال تلك السياسة العدوانية من جانب قبرس وملوكها ، بعد أن غدت الجزيرة مركزاً للعدوان على الموانئ الإسلامية — ليس فقط في مصر والشام — بل أيضاً في آسيا الصغرى حيث يوجد الأتراك . وشاءت الظروف أن اعتلى عرش دولة المماليك سنة ١٤٢٢ سلطان من أقوى السلاطين وأكثرهم طموحاً — هو السلطان برسباي — الذي صمم على وضع حد لعدوان قبرس وملوكها والقضاء على ذلك النفر من القراصنة الذين « يفسدون في البحر » .

وكان أن أرسل برسباي ثلاث حملات لغزو قبرس ، الأولى سنة ١٤٢٤ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وقد استطاع الجيش المصري في الحملة الأخيرة أن ينزل الهزيمة ساحقة بالملك جانوس ملك قبرس في موقعة خيروكيتا ، فأخذت السيوف تعمل في صفوف القبارسة « وأسنة الرماح تطعن في أعضائهم ، فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفاً » . وعندما رأى الملك جانوس ما حل بجيشه حاول الفرار فلم يتمكن بسبب ما أصابه من

جروح ، فأسره المسلمون وعادوا به مع جموع غفيرة من الأسرى إلى مصر .

وتصف المراجع المعاصرة كيف استقبل في القاهرة الأبطال الذين غزوا قبرس ؛ فشق موكبهم شوارع القاهرة في نظام باهر « يذهل العقل » ؛ على قول المؤرخ أبى المحاسن . أما الأسرى فقد ساروا على الأقدام ناكسي الرءوس ومعهم ملكهم جانوس ممتطياً « بغلا أعرج » . وقد ظل ملك قبرس أسيراً في قلعة الجبل مدة من الزمن ؛ ولم يطلق سراحه بعد ذلك إلا بشروط خاصة وبعد دفع فدية كبيرة من المال .

ومنذ ذلك الوقت — وحتى أوائل القرن السادس عشر — غدت قبرس تابعة لمصر ، ومن « جملة بلاد السلطان » على قول المقرئى . وبذلك انهارت القلعة التى اتخذها الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى قاعدة لتهديد الوطن العربى فى الشرق الأدنى ؛ كما استطاعت مصر أن تحطم الحصار الذى فرضه الغرب عليها فى تلك العصور وأن تخرج من معركة الحصار الاقتصادى قوية ظافرة مرفوعة الرأس .

* * *

على أنه يلاحظ أن سياسة الحصار الاقتصادي التي فرضها الغرب الأوربي على مصر والشام في عصر الحروب الصليبية لم تقتصر على حوض البحر المتوسط ، وإنما أراد أصحاب المشاريع الصليبية في أواخر العصور الوسطى أن يمدوا ذلك الحصار إلى البحر الأحمر ليكتمل تطويق مصر اقتصادياً . ولكن قطع تجارة الشرق الأقصى عن البحر الأحمر كان يستلزم أمرين : الأول هو البحث عن طريق آخر غير طريق البحر الأحمر تسلكه تجارة الشرق إلى أوروبا دون أن تمر بمصر والشام اللذين تحكمها سلطة المماليك ، والثاني مخالفة إحدى القوى غير الإسلامية الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر من ناحية الجنوب لتساعد الصليبيين الأوربيين في قطع التجارة الواردة إلى دولة المماليك عن طريق ذلك البحر .

أما عن الأمر الأول ، فإن «جنوا» شرعت فعلاً في البحث عن طريق آخر جديد يوصلها إلى الهند ، حتى أدى بها البحث إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربي لأفريقية — في مواجهة جزر كناريا — مما يعد مقدمة للجهود التي أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد . هذا إلى أن أصحاب المشروعات الصليبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

تناولوا في مشروعاتهم فكرة البحث عن طريق آخر غير طريق مصر للحصول على غلات الشرق الأقصى . ومن ذلك المشروع الذي قدمه أحد الرهبان الفرانسكان إلى البابا نيقولا الرابع والذي طالب فيه بتحويل تجارة الهند عن البحر الأحمر ومصر إلى الخليج وفارس ثم شمال العراق وأرمينية الصغرى على الشاطئ الشرقى لآسيا الصغرى ؛ ومن هناك تقوم السفن الأوربية بنقل المتاجر الآسيوية إلى الغرب .

وهكذا لم تلبث أن ظهرت أهمية عدة طرق جديدة للحصول على غلات الشرق الأقصى وتوابعه — غير طريق مصر والممالك . وكان أول هذه الطرق وأهمها طريق قبرس وموانئ أرمينيا الصغرى وشمال العراق وتبريز ؛ وثانيها طريق البحر الأسود فموانئ طرابيزون وسينوب ومنها براً إلى الفرات وتبريز ؛ وثالثها — وهو أضعفها — طريق جنوب روسيا فالقوقاز فالشرق الأقصى . وقد أدى الإقبال على الطريق الأول إلى انتعاش ميناء إيباس على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى . ولا شك في أن صداقة الأرمن مع المغول ساعدت على تأمين هذا الطريق وتنشيطه .

هذا عن الاتجاه الأول الخاص بالبحث عن طريق جديد

غير طريق مصر للحصول على تجارة الشرق . أما عن الاتجاه
الثانى الخاص بالبحث عن حليف للصليبيين يساعدهم فى إحكام
الحصار الاقتصادى على مصر عن طريق إغلاق البحر الأحمر
من ناحية الجنوب ؛ فإن الصليبيين لم يجدوا أفضل من الحبشة ،
وهى الدولة التى حكمها ملوك مسيحيون أمكن الاتفاق معهم
على تطويق بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى من ناحيتى الجنوب
والشمال . لذلك حرصت البابوية على تقوية صلتها بالحبشة ،
فأرسلت الرسل والسفراء سنة ١٣٠٥ ثم سنة ١٣١٦ إلى ملوك
الحبشة ؛ كما أرسل ملك فرنسا سفارة إلى ملك الحبشة
سنة ١٣٣٨ .

ويبدو أن هذه الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوروبى
من ناحية وملوك الحبشة المسيحيين من ناحية أخرى نجحت
فى استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين وجذبهم داخل دائرة
الحركة الصليبية . من ذلك أن ملك الحبشة لم يكذب يسمع خبر
إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الإسكندرية سنة ١٣٦٥
حتى بادر إلى إعداد جيش ضخم ، وأعلن أنه سيهاجم مصر من
ناحية الجنوب ، وبذلك يتم تطويقها اقتصادياً وحرية . ولكن
لم تلبث أن جاءت الأخبار إلى ملك الحبشة بانسحاب بطرس

لوزجنان من الإسكندرية ، وعندئذ عاد الأحباش إلى بلادهم بعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم .
ومع ذلك فإن ملوك الحبشة لم يتخلوا عن فكرة حصار مصر ومهاجمتها من ناحية الجنوب ، بدليل أن إسحاق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) أراد القيام بحملة صليبية كبرى ضد مصر ، فيدهمها من ناحية الجنوب ؛ وأرسل إلى ملوك أوروبا سنة ١٤٢٨ يدعوهم لمساعدته في القيام بهجوم على مصر من ناحية الشمال . وتروى المراجع أن رسول الملك إسحاق إلى ملوك غرب أوروبا كان تاجراً فارسياً مسلماً اسمه علي نور الدين التبريزي . وقد نجح هذا الرسول الخائن في إبلاغ رسالة ملك الحبشة إلى حكام الغرب الأوربي ؛ وتم الاتفاق فعلاً على خطة مزدوجة لمهاجمة مصر من ناحيتي الجنوب والشمال . ولكن حدث عند عودة التبريزي بعد ذلك إلى الحبشة عن طريق مصر أن اكتشف أمره ، فقتله السلطان برسباي جزاء خيائته .

وعلى الرغم من مقتل التبريزي فإن دعوة ملك الحبشة صادفت قبولا من بعض ملوك أوروبا . من ذلك أن ألفونس الخامس ملك أرغونة شرع في إعداد أسطوله لمهاجمة شواطئ

مصر ، وأرسل سفارة إلى ملك الحبشة يؤكد فيها حسن نيته عن طريق عقد مصاهرة بين الطرفين . كذلك أظهر ملك فرنسا اهتماماً كبيراً بذلك المشروع على الرغم من انشغال فرنسا عندئذ بحرب المائة عام ضد إنجلترا .

ثم كان أن نجح فاسكو دي جاما البرتغالي في كشف طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ — ١٤٩٩) ؛ فجاء ذلك ضربة قاضية على المكانة التجارية الفريدة التي ظلت دولة الممالك تتمتع بها طويلاً . وفي الحرب التي نشبت بعد ذلك بين البرتغاليين والممالك ، أسهمت دولة الحبشة بسهم وافر في مساعدة البرتغاليين . والواقع أن الاتصالات الودية بين البرتغاليين والأجباش بدأت فعلاً قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ؛ ولكن هذه الاتصالات لم تقو إلا بعد اكتشاف ذلك الطريق ، فأرسلت هيلانة ملكة الحبشة مبعوثاً في سفارة سنة ١٥١٠ إلى ملك البرتغال لمفاوضته في عقد اتفاقية ضد الممالك في مصر . ويهمنا من أمر الرسالة التي أرسلتها ملكة الحبشة إلى ملك البرتغال أنها طفحت بالروح الصليبية الواضحة ؛ حتى أنها لقت ملك البرتغال بلقب « قاهر المسلمين » ؛ كما أبدت

رغبتها في أن يمدّها البرتغاليون بالسفن اللازمة لقفل البحر الأحمر عند الطور شمالاً وباب المندب جنوباً .

* * *

وأخيراً ، فإنه يلاحظ أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة بالحصار الاقتصادي على مصر مصحوبة بفكرة أخرى طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية ، هي تجويع مصر والقضاء على أهلها بتحويل مجرى النيل في الحبشة . وهناك في المراجع العربية ما يشير إلى أن ملوك الحبشة هددوا أكثر من مرة بتحويل مجرى النيل في بلادهم لتجويع مصر . وقد ظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل ألفونس ملك أرغونيه إلى ملك الحبشة سنة ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي يقوم ألفونس بغزو بلاد الشام . ولما اشتد النزاع بين المماليك والبرتغاليين عقب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ؛ أرسل البوكرك — قائد الأسطول البرتغالي — إلى ملك البرتغال يطلب إمداده بعدد من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فوراً على تحويل مجرى النيل ؛ مما يدل على اعتقاد الأوربيين

والأجباش جميعاً فى إمكان تنفيذ ذلك المشروع^(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأيام سرعان ما أثبتت أن
أوهام الصليبيين لم تكن إلا أضغاث أحلام ؛ وأن فكرة
الحصار الاقتصادى أو فكرة تحويل مجرى النيل لم تنجح
أمام قوة شعب يؤمن بالله ويؤمن بحقه فى حياة حرة كريمة .

(١) للوقوف على التفاصيل انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور :
الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ١٢٠٩ — ١٢١٤ .

الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأوروبا

لو كانت الحروب الصليبية - كما ظن البعض في الماضي - مجرد حركة لاسترداد الأراضي المقدسة من المسلمين وحماية حجاج الغرب القاصدين إلى تلك الأراضي ؛ لاقتصر ميدانها على بلاد الشام . ولكن الحركة الصليبية كانت أوسع من ذلك بكثير ، إنها كانت المنفس الذي نفس به الغرب الأوربي في العصور الوسطى عن حماسه الدينية من ناحية ، وعن رغبته في التوسع والاستعمار من ناحية ثانية ، وعن ثورته على الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت غرب أوروبا من ناحية ثالثة . وعلى ذلك لم تكن الحركة الصليبية محدودة بميدان معين أو يلد واحد ، وإنما كان من الممكن أن تشتعل ناراها في كل بلد يعثر فيه الصليبيون الغريون على مسلمين . وهكذا صارت بلاد المسلمين في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى وأسبانيا ميادين للمعركة الصليبية ؛ وذلك بالإضافة إلى الميادين المعروفة في الشام ومصر والعراق والبحرين الأحمر والمتوسط . والواقع أن شمال أفريقيا ظل يسترعى نظر الصليبيين الغربيين

منذ وقت مبكر ، حتى كانت سنة ١٢٧٠ فقام لويس التاسع بحملته الصليبية — المعروفة بالثامنة — واختار تونس بالذات هدفا لتلك الحملة . وحتى اليوم لا يعرف التاريخ سببا واضحا لاتجاه لويس التاسع وحملته إلى تونس ، لاسيا وأن أمير تونس في ذلك الوقت — وهو أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي — كانت تربطه علاقات طيبة بالحكام المسيحيين في أوروبا ، حتى لقد اتهمه المقریزی بميوله للفرنج وبأنه « لا يصلح أن يلي أمور المسلمين » . وإذا كانت حملة لويس التاسع على تونس قد باءت بالفشل نتيجة لحرارة الجو وتفشي الأمراض في معسكر الصليبيين ، حتى أن الملك لويس نفسه مات في تونس في أغسطس سنة ١٢٧٠ ؛ فليس معنى ذلك أن شمال أفريقية غاب عن فكر الصليبيين ومشاريعهم في أواخر العصور الوسطى .

من ذلك أن أحد أصحاب المشروعات الصليبية — وهو رومان لول — أوصى بالقيام بحملة صليبية تسلك طريق شمال أفريقية للوصول إلى مصر والشام . بل إن رومان لول هذا تعلم اللغة العربية وأجاد التفاهم بها ، فأراد أن يستغل السلاح في التبشير بالمسيحية بين المسلمين في شمال أفريقية ؛ وفعلا قام بمهمته التبشيرية الأولى في شمال أفريقية سنة ١٢٩٢ . ولم يلبث

أن اتهم رومان لول في بلاد الحفصيين بالشرك والحض على الكفر فحكم عليه بالإعدام ثم خففت هذه العقوبة إلى الطرد خارج البلاد . ولكن رومان لول لم يتعظ وعاد إلى شمال أفريقية سنة ١٣٠٧ لمعاودة الكرة ومحاولة نشر المسيحية بين المسلمين ، وبخاصة البربر . وفي تلك المدة نزل رومان في مدينة بجاية بالجزائر ، حيث استطاع أن يتصل ببعض العلماء المسلمين ويطلب مناظرتهم في موضوعات دينية . وكان أن ثار الرأي العام الإسلامي في بجاية على أساليب ذلك المبشر ، فحكم عليه بالسجن ستة أشهر ، طرد بعدها من البلاد .

وهكذا ظل شمال أفريقية يحتل مكانة خاصة في تفكير أصحاب المشروعات الصليبية حتى تجمع أسطول صليبي أسهمت فيه صقلية وبيزا وجنوا ، واستطاع هذا الأسطول الاستيلاء على جزيرة جربة الواقعة في خليج قابس بشمال أفريقية . وكانت هذه الجزيرة تابعة عندئذ لأبي العباس أحمد المستنصر أمير بني حفص في تونس ؛ فلم يستطع الدفاع عنها واستولى عليها الصليبيون دون صعوبة سنة ١٣٨٨ .

ويبدو أن النجاح في الاستيلاء على جزيرة جربة شجع جنوا على التفكير في القيام بحملة صليبية أكبر ضد المسلمين

بشمال أفريقية ؛ وفي هذه الحالة كان لابد لجنوا من الاعتماد على مساعدة إحدى الدول الأوروبية الكبرى . وكان أن تم الاتصال بين جنوا وفرنسا للقيام بحملة صليبية ضد تونس بالذات . ولا يوجد لدينا تعليل لاستئثار تونس بأطماع الأوربيين في تلك الحقبة سوى أهمية موقعها التجاري ، مما جعل كثيراً من التجار الأوربيين — وبخاصة الإيطاليين — يترددون على سوسة والمهدية وسفاقس وقابس ، فضلاً عن جزيرة جربة التي استولى عليها الأوريون سنة ١٣٨٨ كما سبق أن أوضحنا . ثم إن موقع تونس المتوسط في حوض البحر المتوسط ونشاطها التجاري جعل موانئها قواعد طيبة لكثير من قراصنة المسلمين الذين سلحوا سفنهم الخفيفة للإغارة على الأساطيل الإيطالية وغير الإيطالية أثناء سفرياتها من شرق حوض البحر المتوسط إلى غربه وبالعكس ونهب ما تحمله من بضائع وأموال . هذا فضلاً عن اعتداء أولئك القراصنة أحياناً على شواطئ البلدان والجزر الأوربية في حوض البحر المتوسط . وللحوظ أن قراصنة البر لم يفرقوا بين أعمال القرصنة والجهاد ؛ فأوا في تلك الإغارات نوما من أنواع الجهاد الديني ضد المسيحيين ؛ بدليل أن الحفصيين أنفسهم عمدوا أحياناً إلى مساعدة

القراصنة وتشجيعهم . ولكن الجمهوريات الإيطالية التي اعتمدت في حياتها على التجارة لم تستطع السكوت عن تلك الاعتداءات ، ولذلك اختار الجنوية أن يوجهوا حملتهم الصليبية سنة ١٣٩٠ ضد المهديّة بوصفها أقوى قلاع تونس وأكبر مركز للقراصنة بشمال أفريقية فضلا عن أهميّة مركزها التجاري .

وكان أن وافق شارل السادس ملك فرنسا على مشاركة الجنوية في تلك الحملة التي اتجهت ضد المهديّة في صيف سنة ١٣٩٠ .

ويروى ابن خلدون أن أخبار تحركات الصليبيين وصلت في وقت مبكر إلى مسامع أبي العباس أحمد الثاني المستنصر أمير تونس ، فأرسل ابنه الأمير أبا فارس « يستنفر أهل النواحي ويكون رصدًا للأسطول هناك » . ومع ذلك فقد استطاع الصليبيون النزول إلى الشاطئ دون مقاومة ، ومن ثم شرعوا مباشرة في محاصرة المهديّة . على أن الحصار استمر تسعة أسابيع دون أن يحقق الصليبيون أي نصر أو تقدم ؛ فلاحم نجحوا في اقتحام المدينة ولا هم استطاعوا التغلب على الجيش القوي الذي حضر على رأسه أمراء شمال أفريقية لإنقاذ المهديّة .

هذا في الوقت الذي اشتدت فيه حرارة الصيف وتناقصت المؤن في معسكر الصليبيين ، فضلا عن أزمة مياه الشرب التي عانى

منها الصليبيون الشيء الكثير . ولم يسع الصليبيون تحت تأثير تلك الظروف سوى طلب الصلح والجلاء دون أن يحققوا هدفاً واحداً من أهداف حملتهم ؛ مما جعل ابن خلدون يصف تلك الحملة بأنها جاءت فشلاً للمسيحيين ونصراً لجيوش المسلمين .

وهكذا لم يسلم المغرب العربي من هجمات الأوربيين أواخر العصور الوسطى ، حتى قرر بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية نقلت ميدانها من المشرق إلى المغرب في القرن الخامس عشر بالذات . وقد تزعم حركة الهجوم على المغرب في ذلك الدور الأسبانيون والبرتغاليون ، فنجح الأسبانيون في احتلال أجزاء من ساحل الجزائر حصونها وأقاموا فيها قلاعاً لهم ، في حين احتل البرتغاليون أجزاء من الساحل الغربي لأفريقية . وإزاء الهجمات الأوربية على بلاد المغرب لم يسع المغاربة سوى أن يسلحوا السفن لقطع الطريق على الأساطيل الأوربية والقيام بهجمات مضادة على شواطئ أوروبا . وفي تلك الأعمال البحرية التي قام بها المغرب ضد القوى الأوربية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، يذكر التاريخ أعمال عروج بن يعقوب الذي عرف باسم بربروس وأخيه خير الدين ،

وقد اشتدا في مهاجمة السفن والثغور الأوربية بشكل أزعج الأوربيين .

وقد جاءت تلك الهجمات في وقت استفحلت فيه قوة الأتراك العثمانيين وازداد خطرهم على الأجزاء الشرقية من أوربا . ولا شك في أن اشتداد الحروب بين الأوربيين المسيحيين من ناحية وكل من العثمانيين والمغاربة المسلمين من ناحية أخرى ، واتخاذ هذه الحروب مسحة دينية واضحة ؛ كان من العوامل التي أدت إلى التقارب بين العثمانيين والمغاربة . وأخيراً لم يجد المغرب بدا من الدخول في كنف الدولة العثمانية ، فاستولى العثمانيون على الجزائر سنة ١٥٢٩ ثم على تونس سنة ١٥٣٤ .

* * *

والواقع أن الشرق الأدنى شهد تطوراً خطيراً في القرن الرابع عشر نتيجة لازدياد نفوذ العثمانيين واتساع دولتهم اتساعاً سريعاً على حساب جيرانهم . وإذا كان العثمانيون قد غدوا القوة الإسلامية الكبرى في آسيا الصغرى في أواخر القرن الرابع عشر ، فإن ذلك جعل حركتهم التوسعية على حساب الدولة البيزنطية وغيرها من القوى المسيحية في شرق أوربا تبدو في نظر الأوربيين المعاصرين ذات مسحة دينية خطيرة ؛ حتى أن الرأي

الغالب في التاريخ هو اعتبار الحملات التي أعدها الأوربيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لوقف التوسع العثماني في شرق أوروبا ، حملات صليبية قام بها الأوربيون لحماية شرق أوروبا من حركة التوسع الإسلامية التي قام بها العثمانيون على حساب الشعوب المسيحية .

ذلك أن العثمانيين نجحوا في العبور إلى القارة الأوربية في الربع الأول من القرن الرابع عشر ، ومنذ ذلك الوقت لم يدخروا وسعا في التوسع السريع على حساب المسيحيين في شرق أوروبا حتى استولوا على غاليبولي سنة ١٣٥٤ ثم على أدرنه سنة ١٣٥٧ . وهكذا أحاط العثمانيون بالقسطنطينية وقطعوا الصلة بينها وبين العالم الأوربي عند وفاة السلطان أورخان العثماني سنة ١٣٥٩ .

وربما ظن الغرب الأوربي أن في وجود امبراطورية الصرب ضماناً كافياً لوقف توسع العثمانيين في شرق أوروبا ؛ ولكن السلطان مراد الأول العثماني استطاع أن يحطم ذلك الحاجز وأحرز انتصاراً على الصرب عند المارتزا سنة ١٣٧١ ، وبعد ذلك سقطت بلغاريا في قبضة العثمانيين . وفي موقعة كوسوفو سنة ١٣٨٩ أحرز العثمانيون انتصاراً على الصرب وبذلك غدوا

سادة البلقان . وكان أن فزع الغرب الأوربي من جراء توسع
العثمانيين على ذلك الوجه في شرق أوربا ، فصدرت مراسيم
بابوية سنة ١٣٩٤ — ١٣٩٥ لإعلان الحرب الصليبية ضد
العثمانيين المسلمين . وسرعان ما أخذت الاستعدادات تجري
في الغرب الأوربي للجماعة الصليبية المنتظرة ، وهي الحملة التي شارك
فيها الفرنسيون والألمان والإنجليز والمجريون ؛ فضلا عن
أعداد كبيرة من المتطوعين وفدوا من بولندا وبوهيميا وإيطاليا
 وإسبانيا . وفي أواخر يوليو سنة ١٣٩٦ اجتمعت في بودا
الجيش الصليبية التي بلغت عدتها أكثر من مائة ألف مقاتل ،
وهو أكبر عدد من الصليبيين اشترك في موقعة واحدة ضد
المسلمين في تاريخ الحروب الصليبية .

وقد استمر الصليبيون في زحفهم بحذاء الدانوب يستولون
على المدن التابعة للعثمانيين واحدة بعد أخرى ، ويقتلون من
فيها من أتراك أولا عن آخر . وأخيراً وصل العثمانيون
إلى مدينة نيقوبوليس — أقوى المعاقل العثمانية على الدانوب —
فوقفوا عاجزين أمامها لحصاتها . ولم يلبث أن ظهر الجيش
العثماني تحت قيادة السلطان بايزيد ، وعندئذ لم يقو الصليبيون

على الصمود أمام العثمانيين ، وحلت بهم الهزيمة ساحقة في أواخر
سنة ١٣٩٦ .

وكانت حملة نيقوبوليس آخر حملة صليبية كبيرة ذات صبغة
دولية ، مما مكن العثمانيين من تحقيق سيطرتهم الفعلية على معظم
البلقان . وقد حاول الأوريون أن يستفيدوا من الضربة التي
أنزلها تيمورلنك بالدولة العثمانية في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢
فدعت البابوية لحملة صليبية جديدة تحرر البلقان من الحكم
العثماني . ولكن السلطان مراد الثاني العثماني كان أسرع
في العمل ، فأنزل هزيمة كبرى بالهنغارين وحلفائهم عند فارنا
سنة ١٤٤٤ . وبذلك فشلت أيضا تلك الحملة الصليبية التي دعا لها
البابا وناب عنه فيها أحد الكرادلة ، فضلا عما أحاط بها من
شعور ديني واضح .

وأخيرا سقطت القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ،
فاهتزت البابوية والعالم المسيحي الغربي لتلك الصدمة ، وحاول
البابا يوس الثاني سنة ١٤٦٣ أن يضع مشروع حملة صليبية
كبرى على غرار الحملات الصليبية التي تحكى عنها كتب التاريخ .
ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح ، إذ كان الغرب الأوربي
على أبواب عصور جديدة وأخذ تيار النهضة يحرف الأوربيين

فرفضوا أن ينساقوا وراء البابوية ورجال الدين انسياقا أعمى لتحقيق أهداف صعبة لا تتناسب مع التضحيات الضخمة التي ظل الغرب الأوروبي يتحملها قرونا طويلة دون ثمرة واضحة . وعندما وجد البابا يوس الثاني نفسه وحيدا تلهب الحماسة قلبه وسط مجتمع لا يقدر شعوره ، صمم على القيام بنفسه بالحملة الصليبية المزعومة . وكان أن جمع البابا عدة سفن وأبحر على رأسها ، ولكن لم يلبث أن انفض بحارة السفن عنه ، فمات ذلك البابا حزينا سنة ١٤٦٣ .

* * *

ولكن إذا كانت المعركة الصليبية قد انتهت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر برجحان كفة المسلمين في الشرق الأدنى ، فإن نتيجة المعركة كانت عكسية في أسبانيا ، حيث انتهى الأمر في نهاية القرن الخامس عشر بطرد المسلمين نهائيا من شبه الجزيرة الأسبانية . ولا يوجد تعليل لهذه الظاهرة سوى أن المسلمين في أسبانيا كانوا بعيدين عن قلب العالم الإسلامي ومركز حركة الجهاد ، في الوقت الذي كانت أسبانيا قطعة لا تنجزأ عن القارة الأوربية ، وكان المسيحيون فيها قريين من البابوية ومن قلب العالم المسيحي الغربي ، الأمر الذي جعل الكفتين غير متعادلتين .

والمعروف عن المسلمين في أسبانيا أنهم لم يبسطوا سيطرتهم مطلقا على جميع شبه الجزيرة ، وإنما ظلت أجزاء واسعة في الشمال والغرب خارج نفوذهم . وفي تلك الأجزاء قامت دويلات مسيحية أهمها قشتاله وأرغونه وليون والبرتغال وغيرها ، وهي الدويلات التي انطلقت منها حركة مقاومة المسلمين والسعى لإخراجهم من شبه الجزيرة عندما اتضح ضعف دولتهم في الأندلس .

وقد أخذت حركة التوسع المسيحي في أسبانيا تسير بخطى سريعة على حساب المسلمين في القرن الثالث عشر ؛ فلم يكد فردناند الثالث ملك قشتاله يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠ حتى فتح قرطبة المقر السابق للخلافة الأموية بالأندلس سنة ١٢٣٦ ؛ وحول جامعها إلى كندرائية . وفي سنة ١٢٤٤ استولى فردناند الثالث على أشبيلية من المسلمين ، كما استولى على قادس وشمريش سنة ١٢٥٠ ؛ وبذلك وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي ؛ في حين استولى خليفته ألفونس العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦ بمساعدة جيمس الأول ملك أرغونة . هذا في الوقت الذي وصلت فيه البرتغال سنة ١٢٦٢ إلى حدودها الحديثة بعد أن انتزعت إقليم الغرب من المسلمين . وبذلك لم يبق للمسلمين

في أسبانيا سوى مقاطعة غرناطة في الجنوب ، حيث قدر لهم أن يعيشوا فترة أخرى بلغت قرنين ونصفا من الزمان .

وليس معنى ذلك أن المسلمين في الأندلس استسلموا على طول الخط في ذلك الدور الأخير من أدوار دولتهم ، فقد عبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير وانضم إليه أمير غرناطة وأخذوا جميعاً يحاصرون طريف . ولكن ملك قشتالة ألفونس الحادى عشر أسرع لمواجهة ذلك الغزو سنة ١٣٤٠ ؛ ونجح في إنزال هزيمة بالمسلمين والاستيلاء على بعض معاقلهم ، مما جعل أمير فاس ينسحب إلى أفريقية . وكان ألفونس الحادى عشر يطمع في الاستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول إمدادات في المستقبل من مسلمى أفريقية إلى إخوانهم في غرناطة . ولكن انتشار الوباء الأسود في أوروبا سنة ١٣٥٠ شل حركة الحكام والمحكومين جميعا وحال دون تنفيذ ذلك المشروع .

ولم يلبث أن أدى توحيد قشتالة وأرغونة في أواخر القرن الخامس عشر إلى زيادة الخطر المحدق بالمسلمين في جنوب أسبانيا . ويبدو أن مسلمى غرناطة غرهم الهدوء النسبي الذى ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم ، فانقسموا على أنفسهم ،

وبدّدوا جهودهم في محاربة بعضهم بعضاً دون أن يعملوا حساباً للقوة المسيحية الموحدة التي قامت على حدودهم . وكان أن بدأ الهجوم المسيحي على غرناطة سنة ١٤٨١ فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى في أيدي المسيحيين . وكان الأوريون قد تعلموا من العرب استخدام البارود والأسلحة النارية ، فلبّجاً المسيحيون في أسبانيا إلى طعن المسلمين بسلاحهم ، واستخدموا ذلك السلاح الجديد في الاستيلاء على حصن لورة ثم لوشة من المسلمين . أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل شجاعة قائدها حامد الزغبى ، فلبّجاً المسيحيون إلى بث الألغام تحت أسوارها وحضرت إيزابلا بنفسها لتثير الشجاعة في قلوب رجالها حتى نفذت الأقوات في المدينة فاستسلمت للغزاة . وفي سنة ١٤٨٩ سقطت بسطة في أيدي المسيحيين بعد أن ظلت تقاومهم في شجاعة نادرة ستة أشهر . وبذلك لم يبق للمسلمين في الأندلس سوى غرناطة التي ظلت تقاوم في عناد حتى اضطرت إلى إلقاء السلاح قرب نهاية سنة ١٤٩١ ، بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط محيط من المسيحيين وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة المزعومة

من ممالك مصر أو سلاطين العثمانيين . وبذلك دالت دولة العرب
في أسبانيا .

وهنا نؤكد أن تلك الحروب التي دارت بين المسلمين
والمسيحيين في أسبانيا إنما كانت — باعتراف جمهرة المؤرخين —
حلقة أخيرة في سلسلة الحروب الصليبية . ولا أدل على ذلك من
أن البابوية كانت تبارك جهود المسيحيين في أسبانيا في حربهم
ضد المسلمين ؛ كما أن تلك الحروب التي شنها المسيحيون
في الغرب لم يشترك فيها الأسبان وحدهم ؛ وإنما شارك فيها أيضاً
متطوعون من مختلف جنسيات غرب أوروبا كالسويسريين
والإنجليز والألمان وهؤلاء جميعاً ترحلوا إلى أسبانيا
ليعبروا عن حماسهم الصليبية في حرب المسلمين .

ثم إن روح التعصب الصليبية ظهرت بوضوح عقب استسلام
غرناطة ، فعلى الرغم من أن شروط التسليم نصت على عدم
الانتقام من المسلمين والإساءة إليهم ؛ إلا أن هذه الشروط كان
من الصعب تنفيذها في عصر طفق بروح التعصب الديني وفي بلد
عرف حكامه بالتطرف في ذلك التعصب . وهكذا أعقب سقوط
غرناطة موجة من التعذيب الوحشي الذي حل بمن بقي في البلاد

من المسلمين . ولم تنته هذه الموجة إلا في القرن السابع عشر
بعد أن عذب من المسلمين من عذب وشرد من شرد وقتل
من قتل ، حتى لقد ثبت أن جملة من نفى من مسلمى الأندلس
عقب سقوط غرناطة بلغت ثلاثة ملايين نسمة^(١) .

(١) للوقوف على التفاصيل ، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور :
الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٥٣ — ١٢٥٨ .

من قصص الحروب الصليبية

يَتَصَوَّرُ كثيرون الحركة الصليبية في سلسلة حروب دموية متصلة الحلقات ، وقف فيها المسلمون والصليبيون وجهاً لوجه ، دون أن يعرفوا جميعاً لغة التفاهم عدا لغة السيوف والحراب . والواقع أن هذه الصورة القائمة للحركة الصليبية لا تعبر إلا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة ، وهي لذلك أبعد ما تكون عن الحقيقة والتاريخ . فالحقيقة الثابتة التي لا يصح أن تغفل عنها عند دراسة الحركة الصليبية ، هي أن هذه الحركة - مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها - كانت قبل كل شيء مجالا واسعاً التقى فيه الشرق العربي الإسلامي بالغرب الأوربي المسيحي ، وأن هذا اللقاء لم يكن لقاء حريباً في ساحة الوغى فحسب ، بل كان أيضاً لقاء حضارياً على أوسع نطاق .

ويعجب من يتعمق قليلاً في مصادر الحروب الصليبية - العربية وغير العربية - عندما يلمس مدى قوة الروابط الاجتماعية التي كانت تنشأ بين المسلمين والصليبيين بالشام بين حين وآخر ، وكيف أن هذه الروابط بلغت أحياناً حد الصداقة والألفة . من

ذلك ما يرويهِ أسامة بن منقذ من أنه كان للملك فولك - ملك مملكة بيت المقدس الصليبية - فارس محتشم من الفرنجة وصل إلى الشام للحج ثم للعودة إلى بلاده . ولكن ذلك الفارس ساقته الصدف إلى الاتصال بأسامة ، فأُسن به « وصار ملازمى يدعونى « أخى » وبيننا المودة والعاشرة . فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده قال لى : يا أخى ، أنا سائر إلى بلادى ، وأريدك أن تنفذ معى ابنك - وكان ابنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة - إلى بلادى يصير الفرسان ويتعلم الفروسية » . ولكن أسامة اعتذر لصديقه الصليبي عن تلبية طلبه ، وودعه وداع الأجاب (١) .

بل لقد كان يحدث فى أشد أوقات القتال حرصاً أن يسأم المسلمون والصليبيون جميعاً طول القتال ، ويتبادلون الفكاهة والطرف ، إلى أن تنتهى فترة الاستجمام وعندئذ يعودون إلى القتال من جديد . من ذلك ما رواه المؤرخ أبو شامة من أنه عندما طال القتال بين المسلمين والصليبيين أمام عكا سنة ١١٩٠ « أنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين « المسلمين والصليبيين »

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٢ - نشر فيلب حتى

كانتا تتحدثان وتتركان القتال . وربما غنى البعض ورقص البعض
لطول المعاشرة ؛ ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة . وسثموا يوماً
فقالوا لى : كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ ؛ نريد أن
يصطرح صبيان : صبي منا وصبي منكم . فأخرج صبيان من البلد
« المسلمين » إلى صبيين من الفرنج ، فوثب أحد الصبيين المسلمين
على أحد الصبيين الكافرين ، فاحتضنه وضرب به الأرض
وأخذه أسيراً ؛ فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين ، وقالوا :
هو أسيرك حقاً ، فأخذ الدينارين وأطلقه^(١) ! »

وهكذا لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية
مستمرة — كما يبدو من اسمها — وإنما تخللتها علاقات إنسانية
عديدة . وقد اقتطفت من المراجع المعاصرة مجموعة من القصص
لكل منها مغزى خاص يعبر عن جانب مهم — رغم أهمية —
من جوانب الحركة الصليبية .

١ — قلب كبير :

يفخر التاريخ العربى بصلاح الدين ، بوصفه الشخصية البارزة
فى تاريخ الحروب الصليبية ، والبطل الكبير الذى قضى عمره

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٤٣ .

فى الجهاد والعمل على طرد الدخلاء الغاصبين من أرض العروبة .
أما الأوريون فهم عادة يفخرون بشخصية ريتشارد قلب الأسد
ويصورونه فى صورة البطل الذى أتى من بلاده فى غرب أوربا
ليقضى بضع سنوات فى أرض الشام ، حرص فيها على ترميم البناء
الصليبي وتدعيمه ، وأظهر من الجلد والمثابرة فى محاربة المسلمين
ما لم يظهره ملك آخر من ملوك الغرب الذين أسهموا فى الحركة
الصليبية .

ولكن إذا كانت المراجع الأوربية تصور صلاح الدين
وريتشارد فى صورة الندين المتعادلين اللذين وقف كل منهما
للآخر دفاعاً عن وجهة نظر معينة ؛ فإننا نلمس فارقاً كبيراً
بين الرجلين فى المثل والأخلاق . إن البطولة ليست مجرد الشجاعة
فى القتال ، ولكن البطولة لها جانبها المعنوى الهام الذى يضاف
على صاحبها هالة من الإعجاب والتقدير والمثالية . وبعبارة أخرى
فإن البطولة تتطلب قبل كل شئ مستوى معيناً من الأخلاق ،
وبخاصة فيما يتعلق بمعاملة الخصوم والأعداء .

وفى الوقت الذى نرى ريتشارد قلب الأسد يلجأ أكثر من
مرة إلى الغدر والمراوغة ونقض العهود ونكث الأيمان والقسوة
فى معاملة الأسرى من المسلمين ؛ إذا بصلاح الدين - على العكس -

يحرص على معاملة الصليبيين معاملة كريمة ؛ فلا يكاد يستولى على مدينة حتى يطلق سراح من فيها من نساء الصليبيين ، ويسمح لهم بالخروج معززات مكرمات إلى حيث يردن . من ذلك أن ريتشارد قلب الأسد تعهد بإطلاق سراح أسرى عكا من المسلمين وفقاً للاتفاقية المبرمة بين الطرفين سنة ١١٩١ ؛ ولكنه لم يكد يستولى على عكا حتى جمع من فيها من الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، وقتلهم صبراً ، طعناً وضرباً بالسيف » .

وشتان بين هذا السلوك الهمجى الغادر ، وبين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس من الصليبيين ، إذ أطلق سراح من فيها وسمح لهم بالخروج إلى المدن الصليبية القريبة سالمين . وعندما طالب بعض المتطرفين صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عند استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ نهرهم صلاح الدين وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية ، والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين لأنه « عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس في صدر الإسلام ، أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان »

بل لقد حدث أن وقعت زوجة أرناط — الخصم اللدود لصلاح الدين — أسيرة في قبضة المسلمين عندما استولى صلاح

الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ؛ فطلبت السماح لها بمغادرة المدينة ، كما طلبت إطلاق سراح ابنها ؛ فأكرمها السلطان وسمح لها بالسفر « وهى بنواها محوطة وبرأيها منوطة » ؛ كما أطلق سراح ابنها بعد ذلك . وقد أدى هذا التساهل من جانب صلاح الدين تجاه الصليبيين ومبالغته فى إكرام خصومه إلى استشارة بعض معاصريه الذين رأوا فى هذه السياسة نوعا من عدم الحزم . من ذلك ما يقوله المؤرخ ابن الأثير معلقا على سياسة صلاح الدين ، عائبا عليه إفراطه فى التسامح والتساهل مع خصومه : « إن الحاكم أو الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ؛ فلأن يعجز حازما خيرا له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم ! ! » (١) .

ولا أدل على كرم أخلاق صلاح الدين فى معاملة خصومه من أنه عندما علم بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وبأنه فى حاجة إلى بعض الفاكهة والثلج ، أسرع بإرسال الكمثرى والخوخ وغيرها من الفواكه المطلوبة فضلا عن الثلج والدواء والشراب إلى خصمه ، الذى لم يكذبيل من مرضه حتى عاود الحرب ضد المسلمين وصلاح الدين .

(١) الكامل فى التاريخ ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وثمة قصة ذكرها القاضي بهاء الدين بن شداد — صديق صلاح الدين ورفيقه وكاتب سيرته — وتعطينا صورة واضحة عن أخلاق صلاح الدين وجميل شمائله . ذلك أنه حدث أثناء الصراع الناشب بين المسلمين والصليبيين حول عكا سنة ١١٩١ أن غنم بعض المسلمين طفلاً رضيعاً عمره ثلاثة أشهر . « ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم « ملوك الصليبيين » فقالوا لها : إنه « أى صلاح الدين » رحيم القلب ، وقد أذنالك في الخروج ، فأخرجى وأطلبه منه ، فإنه يردك عليك . فخرجت تستغيث إلى اليك « مقدمة الجيش » فأخبرتهم بواقعها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان « صلاح الدين » ، فلقبته وهو راكباً ، وأنا في خدمته ، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها في التراب . فسأل عن قصتها فأخبروه ، فرق لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذوه منه . ولم يزل « صلاح الدين » واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً ، وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم . فأرضعته ساعة ،

ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها ! «
ويعلق ابن شداد على هذه القصة قائلاً « فانظر إلى هذه
الرحمة الشاملة لجنس البشرية . اللهم إنك خلقتة رحيمًا فارحمه
رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والإكرام ! » (١)

٢ — قل ميزاء الإحسانه إلى الإحسانه :

على أن الخلق العربي الكريم لم يظهر في تصرفات حكام
المسلمين — مثل صلاح الدين — فحسب ، بل ظهر أيضاً
في تصرفات عامة الناس ؛ حتى اعترف كتاب الصليبيين أنفسهم
بأن أجمل ما في العرب أخلاقهم . والمعروف أن الاعتراف
بالجميل ورد المعروف من الصفات الأصيلة التي يتحلى بها العرب .
وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية ، تشهد على مدى
تقدير العرب للمعروف واعترافهم بالجميل ، وحرصهم على رد
الحسنة بأحسن منها .

ذلك أنه إذا كان الصليبيون قد تظاهروا بأن حركتهم
التوسعية الكبرى في أواخر القرن الحادى عشر إنما استهدفت
استرداد بيت المقدس من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٢٥١ .

الأراضي المقدسة ، فإن سياستهم التي اتبعوها غداة استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ سرعان ما كشفت النقاب عن أطماعهم الاستعمارية التوسعية في الوطن العربي . فلم يكديتم تنويج بلدوين الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، حتى شرع سنة ١١٠١ في الإغارة على البلاد العربية المجاورة . ويروي المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن الملك بلدوين الأول هاجم في ربيع سنة ١١٠١ قبيلة عربية كانت تعبر الأردن ، فقتل معظم رجالها وأسرى النساء والأطفال واستولى على قدر ضخم من الغنائم . وكانت من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة ، وهي حامل على وشك الوضع ؛ فلما علم الملك بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجلان وقدر من الزاد . ولم تلبث المرأة أن وضعت مولودها في الطريق ، وعادت إلى زوجها لتروي له ما حدث لها .

ولم تمض مدة طويلة حتى أتيحت الفرصة لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبي . ذلك أن توسع بلدوين الأول في جنوب فلسطين واستيلائه على أرسوف وقيساريه ، حرك الدولة الفاطمية من سباتها العميق ، فلبجأ الوزير الأفضل الفاطمي إلى إرسال حملتين إلى الشام سنة ١١٠١ وسنة ١١٠٢

لرد عادية الصليبيين . وإذا كان الملك بلدوين قد تمكن من إحراز انتصار سريع على الحملة الفاطمية الأولى ؛ فإن الفاطميين استطاعوا أن يوقعوا بالملك الصليبي في الحملة الأخيرة ؛ فانتهزوا فرصة ابتعاده عن بقية قواته وباغتوه فيما بين يازور والرملة . وكان أن قتل معظم من كان مع الملك بلدوين من الصليبيين ، واضطر الملك نفسه إلى الفرار إلى الرملة والاحتباء بها في ١٧ مايو سنة ١١٠٢ .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، فقضى الملك بلدوين ليلته فيها وهو يحسب حسابا لوصول القوات الإسلامية بين لحظة وأخرى . وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره المحتوم ؛ إذا بشيخ العرب الذي كان بلدوين قد أكرم زوجته الشابة في العام السابق يظهر فجأة أمام الملك الصليبي ليرد له الجمل . ذلك أن الشيخ العربي لم يكذ يسمع بما حدث للملك الصليبي حتى تذكر معرفته ، وأدرك أن الملك بدخوله الرملة قد وقع في المصيدة ، فصمم على مساعدته اعترافا بفضلته . وكان أن فتح الملك بلدوين عينيه في ظلام الليل ليجد أمامه الشيخ العربي يقول له « إن مثلك لا ينبغي أن يضام . سأساعدك على الفرار لكي

تحصل على فرصة أخرى تدافع بها عن نفسك ، بشرط أن تقاتل المسلمين كما يقاتل الشرفاء لا أن تعتدى على المسلمين كما يفعل اللصوص ! » .

وما هي إلا لحظة حتى ساعد الشيخ العربي الملك الصليبي في خلع ملابسه ، وألبسه ملابس عربية تكرر فيها بلدوين ؛ وبذلك أمكنه الخروج إلى يافا والنجاة من الأسر ! .

٣ — مشروع مصاهرة بين المسلمين والصليبيين :

ومن الملاحظ أنه مع مضي الوقت أخذت حدة التعصب الصليبي تخف وتجنح نحو التسامح والاعتدال . فبينما أتى رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق في أواخر القرن الحادى عشر وهم لا يعرفون لغة للتفاهم مع المسلمين إلا لغة السيف ؛ إذا بالوضع يتغير تدريجيا بحيث لم يصبح هناك مانع لدى الصليبيين فى نهاية القرن الثانى عشر من الارتباط برباط المصاهرة مع المسلمين .

ذلك أنه عندما طالت إقامة ريتشارد قلب الأسد فى الشرق ، وتعثرت المفاوضات بينه وبين المسلمين بسبب رغبة كل فريق فى التمسك ببيت المقدس ، اقترح ريتشارد ملك انجلترا حلا طريفا لحسم النزاع بين المسلمين والصليبيين بالشام ؛ هو أن

يتزوج الملك العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا أخت ريتشارد « وكانت عزيزة عليه كبيرة القدر » . وقد استهدف ريتشارد من وراء تحقيق ذلك المشروع أن يشترك الزوجان — العادل الذى يمثل الجانب الإسلامى وريتشارد الذى يمثل الجانب الصليبي — فى حكم فلسطين بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية ؛ وبذلك يحسم الخلاف بين المسلمين والصليبيين .

ومن الطريف أن الملك العادل رحب بتلك الفكرة ترحيبا كبيرا « ورأى فى ذلك عين الصواب » . وربما رأى العادل — وهو الرجل الثانى فى الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين — فى ذلك الحل ضمنا لتوحيد المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام تحت لواء واحد ؛ وإقرار الأمور فى تلك البلاد على أساس من المحبة والمودة المتبادلة بين الفريقين . على أن أغرب ما فى هذه القصة هو أن صلاح الدين نفسه قبل الفكرة وأعلن ترحيبه بها فى صراحة تامة . ويبدو أن صلاح الدين أعلن قبوله لذلك المشروع لعلمه أن ملك إنجلترا ليس جادا فى تنفيذ مشروعه « وأن هذا منه مكر وهزو » .

ومهما يكن من أمر فإن العقبة الكؤود فى سبيل تنفيذ ذلك المشروع لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد ،

وإنما أتت من جانب العروس — الأميرة جوانا — التي أثبت
أن « تمكن مسلما من نفسها » . و يروى المؤرخ أبو شامة
أن رجال الدين من الصليبيين دخلوا على الأميرة جوانا
« وخوفوها واتهموها في دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه :
هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة ، وقطع على النصرانية وقطيعة ،
وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة ! فرجعت عن ذلك وما أجابت » .
ولم يلبث أن اعتذر ريتشارد عن تنفيذ مشروع زواج العادل
من جوانا ، وقال إن اخته لا تعترض على شخص العادل نفسه ،
وإنما تشترط دخول العادل في دينها ! وبذلك فشل المشروع^(١) .
وبصرف النظر عما يبدو في قصة مشروع زواج العادل
من أخت ملك إنجلترا من غرائب ، وما اعترضت ذلك المشروع
من صعاب حالت دون تنفيذه ، فإن مجرد التفكير في تنفيذ ذلك
المشروع يدل على ما اعتري عصر الحروب الصليبية من تطور
في مشاعر المسلمين والمسيحيين على السواء . وشتان بين هذه
العقلية التي فكر بها ريتشارد وصالح الدين والعادل جميعا

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٣ - ابن شداد :
النوادر السلطانية ص ٣١٨ ، عماد الدين الكاتب : الفتح القسى
ص ٣٠٩ .

في أواخر القرن الثاني عشر ، وبين الروح التي آتى بها رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشام في أواخر القرن الحادي عشر . والواقع أن هذا التفكير من جانب ريتشارد وتلك الاستجابة من جانب صلاح الدين والعادل ، إنما يدلان على التقارب السياسي والحضاري والفكري بين المسلمين والصليبيين في الشام بعد مرور قرن على بداية الحرب الصليبية بالشام ، كما يدلان على روح التسامح التي أخذت تبدو في بعض تصرفات الفريقين . وحسبنا ما يرويهِ المؤرخ ابن واصل بعد ذلك مباشرة من اجتماع الملك العادل وريتشارد سوياً « على طعام ومحادثة » ؛ وكيف أن ريتشارد طلب الاجتماع بصلاح الدين نفسه ؛ ولكن الملك العادل رفض طلبه وقال : « إن الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ؛ وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع » (١) .

٤ — معايشة المسلمين تهذب الطباع :

وثمة حقيقة هامة اعترف بها جبهة المؤرخين المعاصرين ، هي أن جموع الصليبيين الذين كانوا يفتدون من الغرب اتصفوا

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٤ .

دائماً بالخشونة والتعصب ، حتى إذا ما استقروا في الشام وجاوروا المسلمين وعاشروهم ؛ أخذت طباعهم تعدل شيئاً فشيئاً . وقد أشار أسامة بن منقذ إلى هذه الحقيقة فقال : إن الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت أخلاقهم وأنسوا بعشرة المسلمين ، أما « من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية فهو أجفأ أخلاقاً » .

ويدلل أسامة بن منقذ على وجهة نظره بقصة طريفة وقعت له ؛ فيقول : إنه اعتاد أن يصلي في المسجد الأقصى — أثناء خضوع بيت القدس للصليبيين — فلا يمنعه فرسان الداوية الذين كانوا يتخذون المسجد الأقصى مركزاً ومقاماً لهم . ويشير أسامة إلى الداوية فيقول إنهم أصدقاؤه ، وأنهم كانوا يخلون له المسجد الصغير ليصلي فيه . ولكن حدث ذات يوم أن دخل أسامة المسجد الأقصى للصلاة كعادته ، فلم يكد يقف ويكبر حتى هجم عليه أحد الفرنج ورد وجهه إلى الشرق وقال له « كذاصل ! » . ولكن بعض الداوية أبعدها ذلك الفرنجي وعاد أسامة إلى الصلاة وعندما عاود الفرنجي فعلته أخرجه الداوية من المسجد ، واعتذروا لأسامة وقالوا له « هذا غريب وصل من بلاد الفرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق ! » (١)

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٤ .

« إشارة إلى أن بيت المقدس تقع جهة الشرق بالنسبة لغرب أوروبا . »

٥ — ضعف الغيرة الجنسية عند الأوروبيين :

ومن الظواهر التي استرعت نظر العرب المعاصرين أن أولئك الصليبيين الوافدين من غرب أوروبا ليست لديهم غيرة جنسية ، وأن الرجل منهم لا يغار على امرأته ولا يحرص على ألا يفرد بها سواه. وكان من الطبيعي أن يدهش العرب لهذه الظاهرة ، وهم المعروفون بغيرتهم ونخوتهم وحرصهم دائماً على مبادئ الشرف وقواعد الأخلاق . فأسامة بن منقذ يعيب على الصليبيين عموماً أن ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، ويدلل على ذلك بأن الرجل منهم يكون ماشياً هو وامرأته عندما يلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة « ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغهما من الحديث . فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ! » ويروى أسامة قصة طريفة يستدل بها على عدم غيرة الفرنج ، فيقول : إن أحدهم دخل بيته فوجد رجلاً مع امرأته في الفراش ، فقال له « أي شيء أدخلك عند امرأتي ؟ » قال « كنت تعباً ودخلت أستريح ! » قال « والمرأة نائمة معك ؟ » قال « الفراش

لها . فهل كنت أقدر أمتنعها من فراشها ؟ » فرد الزوج قائلاً
« وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت !! » .
ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلاً « فكان هذا نكيره ومبلغ
غيرته ! » (١) .

٦ — شجاعة المرأة العربية في القتال :

وفي معركة الحرية والدفاع عن الوطن التي دارت على أرض
العرب ضد الغزو الصليبي ، قامت المرأة العربية بدورها كاملاً ،
وهو دور البطولة والشجاعة والفداء الذي سجله لها التاريخ
في جميع العصور .

من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أنه عندما هاجم الباطنية
— الذين كانوا أحياناً أشد خطراً على المسلمين من الصليبيين
أنفسهم — حصن شيزر ، ارتدت أم ليث الدولة يحيى زردية
وخوذة ، وتسلحت بسيف وترس ، وشاركت في القتال وأخذت
تستحث الشبان على الصبر في القتال . بل إن والدة أسامة بن منقذ
زودت ابنتها الكبرى بالسلاح ، وأمرتها بالخروج للقتال ، وبذلك
أظهرت نخوة « أشد من نخوات الرجال » على حد تعبير أسامة
نفسه .

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

ولم يقتصر أمر القتال على الشابات المسلمات فحسب ؛ بل يروى أسامة أن عجوزاً من جوارى جده يقال لها فنون أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وأبلى فيه . كذلك يروى أسامة بن منقذ كيف أن امرأة عربية من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين واحداً بعد آخر ، وكلما أسرت واحداً حبسته في بيتها حتى اكتملوا ثلاثة ، وعندئذ استدعت جيرانها ليتسلموهم (١) .

٧ — الفوارى الحضارية بين المسلمين والأوربيين :

وكانت الحروب الصليبية مجالاً طيباً للاتصال الحضارى بين المسلمين والأوربيين الغربيين فى العصور الوسطى . وفى ذلك المجال ظهر بوضوح مدى تقدم الشرق والحضارة العربية الإسلامية ، ومدى تأخر الغرب والحضارة الأوربية .

وسرعان ما اكتشف المسلمون بالشام جهل أولئك الأوربيين الغزاة وانحطاط مستواهم الحضارى ، فعابوا عليهم جهلهم ، وحكوا عنهم القصص الذى يشهد على عظم الفارق الحضارى بينهم وبين العرب . من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أن صاحب حصن المنيطرة — وهو صليبي — كتب إلى بنى

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٢٤ .

منقذ وهم جيرانه العرب في حصن شيزر — يطلب منهم إرسال
طبيب يداوى بعض مرضى الصليبيين ، فأرسلوا إليه طبيباً
اسمه ثابت .

ولم تمض عشرة أيام على ذهاب الطبيب العربي حتى قفل
راجعا من حيث أتى ، مما أثار دهشة أصحابه فقالوا له « ما أسرع
ما داويت المرضى ! » فرد عليهم قائلاً : « أحضروا عندي
فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت
للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصدحت ، وحميت للمرأة ورطبت
مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً
يداويهم . وقال للفارس أيما أحب إليك : تعيش برجل واحدة
أو تموت برجلين ؟ فقال أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا
لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً . فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر
فخط ساقه على قرمة خشب وقال : اضرب رجله بالفأس ضربة
واحدة اقطعها . فضربه — وأنا أراه — ضربة واحدة
ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته .
وأبصر للمرأة وقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها .
احلقوا شعرها فخلقوه . وعادت تاكل من ماكلهم ؛ الثوم

والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل رأسها .
فأخذ موسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم
الرأس وحكه بالملح ، فماتت من وقتها .
قلت لهم : بقي لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا . فجئت وقد تعلمت
من طيهم ما لم أكن أعرفه (١) .

(١) اسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار .

أثر الحروب الصليبية في المشرق والغرب

استمرت الحركة الصليبية سنوات طويلة بين مد وجزر ، لم تقتصر فيها هجمات الصليبيين على بلاد الشام وحدها وإنما امتدت إلى معظم البلدان الإسلامية في المشرق والمغرب ؛ فهاجم الصليبيون الوافدون من غرب أوروبا العراق ومصر وآسيا الصغرى وتونس والمغرب والأندلس ؛ بل لقد وصلت هجمات الصليبيين إلى شواطئ الحجاز نفسه ، كما انتقل ميدان القتال بين العثمانيين والصليبيين إلى البلقان . وليس هناك من شك في أن اتساع دائرة الحركة الصليبية على تلك الصورة كان له أثره الواضح في ازدياد الصلات والروابط بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي ، الأمر الذي كانت له نتائج خطيرة في تاريخ الشرق والغرب جميعاً .

ذلك أن الحركة الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الحادى عشر ، فتحت الباب أمام ألوف الأوربيين الذين وفدوا من غرب أوروبا ليستقروا في الشرق العربى . وكان لابد لأولئك الأعراب من اتصال دائم ببلادهم الأصلية ، فبدأت حركة ملاحية

ضخمة في البحر المتوسط بين موانئ الشرق وبلدان الغرب .
مم إن الملاحظ في تاريخ الصليبيين بالشام أن كثيرا منهم كانوا
لا يفضلون البقاء طويلا بالشام ، فاختاروا العودة إلى بلادهم
بعد انتهاء المهمة الأساسية التي حضروا من أجلها - سواء كانت
حرباً أو تجارة . وهؤلاء كانوا عند عودتهم إلى بلادهم يحكون
الكثير عما رأوه وصادفوه في الشرق ، فكانت هذه هي البداية
الحقيقية لمعرفة الغرب الأوربي بالشرق الإسلامي معرفة وثيقة
واسعة ظلت تنمو وتزداد إلى أن بلغت ذروتها في العصور
الحديثة .

وإذا كانت غالبية كتب التاريخ في القرن التاسع عشر ومطلع
العشرين قد حرصت عند الكلام على حملة بونابرت على مصر
والشام على أن تتخذ الحروب الصليبية مدخلا للموضوع ؛ فإن
السبب في ذلك إنما يرجع إلى أن الحروب الصليبية كانت أضخم
محاولة في العصور الوسطى لفتت أنظار الغرب الأوربي إلى الشرق
العربي . ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندما استقروا بالشام ،
كانت غالبيتهم دائماً من الفرنسيين كما كانت اللغة اللاتينية هي اللغة
الغالبة بينهم . وهكذا دالت دولة الصليبيين في الشرق الأدنى ،
ولكن ذكريات الشام ومصر ولويس التاسع ظلت عالقة بأذهان

الفرنسيين بوجه خاص . ومن ذلك الوقت والفرنسيون يحرصون على بقاء صلتهم قوية بالشرق الأدنى والبلدان العربية ، وبخاصة بلاد الشام ، ويعتبرون هذه المنطقة دائرة نفوذ لهم ، على الأقل في الميدان الحضارى .

وثمة أثر آخر للحروب الصليبية في بلدان الشرق الأدنى هو ازدياد النشاط التجارى وما ترتب على ذلك النشاط من ثروة تركت أثرها في أحوال البلاد والعباد . ذلك أن التجار الأوربيين من إيطاليا ومرسيليا وأسبانيا استغلوا المراكز التى أقامها الصليبيون في بلاد الشام فى القيام بنشاط تجارى واسع بين الشرق والغرب . وهكذا أخذت حاصلات الشرق من توابل ومنسوجات وأوان زجاجية وبخور . . . وغيرها ، تتدفق على غرب أوربا عن طريق موانئ مصر والشام . ثم جاءت غزوات المغول لتقلل بعض الطرق التجارية بين الشرق والغرب — مثل طريق الخليج الفارسى — الأمر الذى ركز الجزء الأكبر من تجارة الشرق الأقصى فى طريق البحر الأحمر ومصر بالذات . ولم تلبث أن اكتظت المدن والموانئ المصرية فى عصر المماليك بالذات بالتجار الأوربيين ، الذين عاشوا على هيئة جاليات ، لكل

جالية قنصل يشرف على شئونها ومصالحها ، ولكل منها فندق ينزل فيه أفراد الجالية .

ولا شك في أن هذا النشاط التجارى الواسع الذى جاء وليد الحركة الصليبية وارتبط بها ونما معها ترك أثراً عميقاً وبخاصة فى أوضاع مصر والشام . وإن من يدرس الحياة الاجتماعية فى مصر بالذات فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، يجد كل صورة من صور المجتمع تنطق بوفرة الثروة والبذخ المطلق . فالعمارة المماليكية الفاخرة التى مازالت بقاياها من مساجد وقصور قائمة فى القاهرة ، والمتحف النادرة من أوان ومشكاوات وصناديق ودكك مطعمة وغير مطعمة ، والحفلات العديدة الزاخرة بشتى ألوان الترف . . . كل ذلك يشهد بوفرة ثروة البلاد ، وهى الثروة المستقاة من التجارة الخارجية مع الغرب الأوروبى بوجه خاص فى عصر الحروب الصليبية .

وأخيراً ، فإن الحروب الصليبية ساعدت - عن طريق مباشر أو غير مباشر - على حدوث بعض التطورات الداخلية فى بلدان الشرق الأدنى . ومن هذه التطورات ما هو اجتماعى مثل التأثير بعض عادات الصليبيين وأوضاعهم ، ومنها ما هو إدارى مثل التوسع فى توريث الإقطاعات أسوة بما كان معمولاً به فى الغرب

الأوربي . ومع هذا ، فإن التأثيرات الاجتماعية والإدارية التي انتقلت من الصليبيين إلى العرب ظلت قليلة غير خطيرة ؛ لأن كراهية المسلمين للصليبيين جعلتهم لا يتحمسون لمحاكاتهم والأخذ بنظمهم الاجتماعية والإدارية . أما في الجانب السياسى فإن أثر الحروب الصليبية في بلدان الشرق الأدنى جاء واضحاً قويا . ويمكن أن الحملة الصليبية الأولى جاءت إلى الشرق الأدنى العربى وبلاده مفككة لا تربط بينها وحدة سياسية ؛ ولكن الإحساس بخطر الصليبيين أدى إلى الإيمان بالوحدة ، وإلى ظهور دول — مثل دولة الأيوبيين ودولة المماليك — استمدت وجودها وبقائها من فكرة الجهاد ودفع خطر الصليبيين عن الوطن العربى .

* * *

أما بالنسبة للغرب الأوربي ، فكان أثر الحروب الصليبية لا يقل أهمية ووضوحا . والمعروف أن الحروب الصليبية أحدثت هزة عنيفة في الغرب الأوربي ظهرت آثارها بوضوح في النواحي الاجتماعية والسياسية ، فأدت هذه الحروب إلى إضعاف النظام الإقطاعى وهو النظام الاجتماعى والاقتصادى السياسى الذى أعطى المجتمع الأوربي الغربى طابعه فى ذلك العصر . ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحاً كذلك فى الميدان الاقتصادى ؛ إذ ساعدت

تلك الحروب على إحداث تطور ملموس في النظم المالية في غرب أوروبا . هذا إلى أن ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب على عصر الحروب الصليبية أدى إلى نتائج خطيرة في غرب أوروبا منها ازدياد نفوذ المدن وقوتها ، واتساع نطاق النشاط المصرفى ، وتحسين طرق التجارة وإنشاء طرق جديدة ، ونشاط الطرق البحرية

على أن أهم ما تأثر به الغرب الأوروبى فى عصر الحروب الصليبية كان فى ميدان الحضارة نتيجة للاتصال بالحضارة العربية الإسلامية . ذلك أن الحروب الصليبية أتاحت فرصة طيبة للاتصال الحضارى بين الغرب الأوروبى والشرق العربى فى الوقت الذى كان غرب أوروبا ما زال تأثراً فى ظلمة العصور الوسطى ، مما ساعد على انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية إلى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين .

والملاحظ أن الصليبيين أقبلوا على الحضارة العربية يرتشفون من معيها الفياض ، فنقلوا إلى بلادهم كثيراً من مظاهر الحضارة العربية التى صادفوها فى الوطن العربى . حقيقة إن إقامة الصليبيين بالشام كانت قلقة ومهددة دائماً ، مما لم يسمح لهم بدراسة تراث الحضارة العربية الإسلامية فى كثير من العلوم ؛

ولكن ذلك لم يحل دون رؤية الصليبيين أشياء جديدة عملوا على محاكاتها ونقلها إلى بلادهم . من ذلك أن الغربيين شاهدوا نبات قصب السكر لأول مرة في الشرق على عصر الحروب الصليبية ، فنقلوه إلى غرب أوروبا ، كما حرصوا على تصدير السكر نفسه إلى الغرب ليحل محل عسل النحل الذي لم تعرف أوروبا وسيلة غيره لتحلية الطعام وعمل الحلوى . ومثل ذلك يقال عن كثير من أنواع النبات والثمار والفواكه التي عرفها الأوربيون عن العرب على عصر الحروب الصليبية ونقلوها إلى بلادهم في الغرب ؛ مثل السمس والارز والليمون والبطيخ والثوم .

كذلك عرف الأوربيون كثيراً من المصنوعات العربية وأعجبوا بها ونقلوها إلى بلادهم وحرصوا على استيرادها بانتظام من المصانع العربية في الشرق ؛ سواء المصنوعات الزجاجية أو الخزفية أو المنسوجات أو الجلود أو الأواني المعدنية وغيرها . ومثل ذلك يقال عن الفنون الحربية التي شاهد الأوربيون منها أنماطا غاية في الرقي والتقدم في البلدان العربية في الشرق الأدنى ؛ فأخذ الأوربيون عن العرب فكرة جعل

مدخل الحصن ملتويا بحيث لا يرى الواقف على باب الحصن
ما بداخله .

أما في الجانب الاجتماعي ، فإن تأثير الصليبيين كان عظيما
بما شاهدوه من نواحي الحضارة العربية . من ذلك ما يرويه
أسامة بن منقذ من إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية التي شاهدوا
نماذج طيبة منها في بلاد الشام ، مثل معرة النعمان . والمعروف
أن وظيفة الحمام في مجتمع العصور الوسطى العربي لم تقتصر
على الاستحمام ، بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من الجسد ،
وهي العملية التي قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلاطة بالنسبة
للنساء . ولم يلبث أن أدى إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية
إلى ترددهم عليها طلبا لنظافة الجسد ، بل إن بعضهم كان لا يجد
غضاضة في أن يحضر زوجته للحلاق العربي في الحمام ويطلب
منه تخفيفها .

كذلك ترتب على طول إقامة الصليبيين بالشام ومجاورتهم
للعرب ومعاشرتهم أحيانا ، تذوقهم الطعام العربي وإعجابهم
به . وثمة قصة يرويها أسامة بن منقذ ، خلاصتها أن أحد أصحابه
ذهب إلى مدينة أنطاكية الصليبية لإنجاز عمل ، فنزل في بيت
فارس من فرسان الصليبيين الأوائل الذين حضروا في أوائل

الحروب الصليبية إلى الشام ؛ وطال به العمر حتى كبر ، فاعفى من الخدمة العسكرية وصار له ملك يتعيش منه . وعندما نزل الضيف العربى منزل الفارس الصليبي ، أحضر الأخير « مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة » : ولكن الرجل العربى توقف عن الأكل وامتنع ، وعندئذ قال له الفارس « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الأفرنج ؛ ولى طبابخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن . ولا يدخل دارى لحم خنزير » (١) .

* * *

وبعد ، فإن الحركة الصليبية لم تكن مجرد حروب . لقد كانت بالنسبة للوطن العربى تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات تجربة أثبتت للعرب جميعا فى المشرق والمغرب أن وحدتهم هى الملاذ الذى يلوذون به وقت الخطر ، والعاصم الذى يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين . وكانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوروبى مغامرة فاشلة كلفته كثيرا من التضحيات فى الأرواح والأموال التى ذهبت

(١) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ؛ ١٣٦ .

عبثا لأن منطق العدوان لا يمكن أن ينتصر وسياسة البغى
لا يمكن أن تنجح في أرض عربية عرف أهلها بالحرص على
حريتهم وحرية بلادهم .

وأخيرا فإن الحركة الصليبية كانت بالنسبة للعلاقات بين الشرق
والغرب لقاء مكن الغرب الأوربي من النهوض من سباته الطويل
والأخذ بأسباب حضارة زاهرة تعرف عليها في أرض العرب .



المكتبة الثقافية

تحتق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

- ١ — الثقافة العربية أسبق من
ثقافة اليونان والعبرين } للأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ — الاشتراكية والشيوعية ... للأستاذ علي ادم
- ٣ — الظاهر يبرز في القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد بولس
- ٤ — قصة التطور للدكتور انور عبد العليم
- ٥ — طب وسحر للدكتور پول غليونجي
- ٦ — فجر القصة للأستاذ يحيى حق
- ٧ — الشرق الفنان للدكتور زكى نجيب محمود
- ٨ — رمضان للأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٩ — أعلام الصعابة للأستاذ محمد خالد
- ١٠ — الشرق والإسلام للأستاذ عبد الرحمن صدق

- ١١ — المربخ } للدكتور جمال الدين الفندي
والدكتور محمود خيرى
- ١٢ — فن الشعر للدكتور محمد مندور
- ١٣ — الاقتصاد السياسى للأستاذ احمد محمد عبدالحالى
- ١٤ — الصحافة المصرية للدكتور عبد اللطيف حنزة
- ١٥ — التخطيط القومى للدكتور ابراهيم حلمى عبدالرحمن
- ١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية للدكتور ثروت عكاشة
- ١٧ — اشتراكية بلدنا للأستاذ عبد المنعم الصاوى
- ١٨ — طريق الغد للأستاذ حسن عباس زكى
- ١٩ — التشريع الإسلامى واثره
فى الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى
- ٢٠ — العبقريه فى الفن للدكتور مصطفى سويف
- ٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
- ٢٢ — قصة الذرة للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
- ٢٣ — صلاح الدين الأيوبي بين
شعراء عصره وكتابه } للدكتور احمد احمد بدوى
- ٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حسي
- ٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب للدكتور إمام إبراهيم احمد
- ٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور احمد سويلم العبرى
- ٢٧ — القومية العربية للدكتور احمد فؤاد الأهوانى
- ٢٨ — القانون والحياة للدكتور عبد الفتاح عبدالباقى

- ٢٩ - قضية كينيا للدكتور عبد العزيز كامل
- ٣٠ - الثورة العراقية للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣١ - فنون التصوير المعاصر للأستاذ محمد صدق الجباختجي
- ٣٢ - الرسول في بيته للأستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٣٣ - اعلام الصحابة « المجاهدون » الأستاذ محمد خالد
- ٣٤ - الفنون الشعبية للأستاذ رشدي صالح
- ٣٥ - اخناتون للدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٣٦ - الذرة في خدمة الزراعة للدكتور محمود يوسف الشواربي
- ٣٧ - القضاء السكوني للدكتور جمال الدين الفندي
- ٣٨ - طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكرى محمد هباد
- ٣٩ - قضية الجلاء عن مصر للدكتور عبد العزيز رفاعى
- ٤٠ - الحضرات وقيمتها المعنوية والطبية للدكتور عز الدين فراج
- ٤١ - العدالة الاجتماعية للماستر عبد الرحمن نصير
- ٤٢ - السينما والمجتمع للأستاذ محمد حلمى سليمان
- ٤٣ - العرب والحضارة الأوربية للأستاذ محمد مفيد الشوبانى
- ٤٤ - الأسرة في المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح
- ٤٥ - صراع على ارض الميعاد للأستاذ محمد عطا
- ٤٦ - رواد الوعي الإنسانى للدكتور عثمان امين
- ٤٧ - من الذرة إلى الطاقة للدكتور جمال نوح
- ٤٨ - أضواء على قاع البحر للدكتور انور عبد العليم

- ٤٩ — الأزياء الشعبية للأستاذ سعد الخادم
- ٥٠ — حركات التسلسل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوي
- ٥١ — الفلك والحياة { للدكتور عبد الحميد مباحة
والدكتور عدلي سلامة
- ٥٢ — نظرات في أدبنا المعاصر ... للدكتور زكي المحاسني
- ٥٣ — النيل الخالد للدكتور محمد محمود الصياد
- ٥٤ — قصة التفسير للأستاذ أحمد الشرباصي
- ٥٥ — القرآن وعلم النفس الأستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٥٦ — جامع السلطان حسن وما حوله الأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٥٧ — الأسرة في المجتمع العربي بين { الأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوي
الشريعة الإسلامية والقانون
- ٥٨ — بلاد النوبة للدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٥٩ — غزو الفضاء للدكتور محمد جمال الدين الفندي
- ٦٠ — الشعر الشعبي العربي للدكتور حسين نصار
- ٦١ — التصوير الإسلامي ومدارسه ... للدكتور جمال محمد محرز
- ٦٢ — الميكروبات والحياة للدكتور عبد المحسن صالح
- ٦٣ — عالم الأفلاك للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٦٤ — انتصار مصر في رشيد للدكتور عبد العزيز رفاعي
- ٦٥ — الثورة الاشتراكية «قضايا ومناقشات» للأستاذ أحمد بهاء الدين
- ٦٦ — الميثاق الوطني قضايا ومناقشات للأستاذ لطفي الخولي
- ٦٧ — عالم الطير في مصر للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
- ٦٨ — قصة كوكب للدكتور محمد يوسف موسى
- ٦٩ — الفلسفة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

- ٧٠ - القاهرة القديمة وأحيائها ... للدكتورة سعاد ماهر
- ٧١ - الحكم والأمثال والنصائح } الأستاذ محرم كمال
عند المصريين القدماء
- ٧٢ - قرطبة في التاريخ الإسلامى { للأستاذ محمد محمد صبيح
والدكتور جودة هلال
- ٧٣ - الوطن في الأدب العربى للأستاذ إبراهيم الإيبارى
- ٧٤ - فلسفة الجمال للدكتورة أميرة حلمي مطر
- ٧٥ - البحر الأحمر والاستعمار للدكتور جلال يحيى
- ٧٦ - دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح
- ٧٧ - الإسلام والمسلمون في القارة } للدكتور محمد يوسف الشواربى
الأمريكية
- ٧٨ - الصحافة والمجتمع للدكتور عبد اللطيف حمزة
- ٧٩ - الوراثة للدكتور عبد الحافظ حلمي
- ٨٠ - الفن الإسلامى في العصر الأيوبي للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
- ٨١ - ساعات حرجة في حياة الرسول للأستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٨٢ - صور من الحياة للدكتور مصطفى عبد العزيز
- ٨٣ - حياة فلسفى للدكتور يحيى هويدى
- ٨٤ - سلوك الحيوان للدكتور أحمد حماد الحسينى
- ٨٥ - أيام في الإسلام للأستاذ أحمد الشرباصى
- ٨٦ - تعبير الصحارى للدكتور عز الدين فراج
- ٨٧ - سكان الكواكب للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٨٨ - العرب والتتار للدكتور إبراهيم أحمد المدوى
- ٨٩ - قصة المعادن الثمينة للدكتور أنور عبد الواحد
- ٩٠ - أضواء على المجتمع العربى للدكتور صلاح الدين عبد الوهاب

- ٩١ — نصر الحمراء للدكتور محمد عبد العزيز مرزوقي
- ٩٢ — الصراع الأدبي بين العرب والمعجم للدكتور محمد نبيه حجاب
- ٩٣ — حرب الإنسان ضد الجوع } للدكتور محمد عبد الله العربي
وسوء التغذية
- ٩٤ — ثروتنا المعدنية للدكتور محمد فهمي
- ٩٥ — تصويرنا الشعبي خلال العصور للأستاذ سعد الحاداد
- ٩٦ — منشآتنا المائية عبر التاريخ للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب
- ٩٧ — الشمس والحياة للدكتور محمود خيرى هلى
- ٩٨ — الفنون والقومية العربية للأستاذ محمد صدق الجباخجى
- ٩٩ — اقلام ثائرة للأستاذ حسن الشيخ
- ١٠٠ — قصة الحياة ونشأتها على الأرض للدكتور انور عبد العظيم
- ١٠١ — اضواء على السير الشعبية للأستاذ فاروق خورشيد
- ١٠٢ — طبائع النحل للدكتور محمد رشاد الطوبى
- ١٠٣ — النقود العربية «ماضيها وحاضرها» للدكتور عبد الرحمن فهمى
- ١٠٤ — جوائز الأدب العالمية }
« مثل من جائزة نوبل » } للأستاذ عباس محمود العقاد
- ١٠٥ — الغذاء فيه الداء وفيه الدواء للأستاذ حسن عبد السلام
- ١٠٦ — القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوبانى
- ١٠٧ — القنبلة النافعة للدكتور محمد فتحي عبد الوهاب
- ١٠٨ — الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ للدكتور عبد الرحمن زكى
- ١٠٩ — الفلاف الهوائى للدكتور محمد جمال الدين الفندى
- ١١٠ — الأدب والحياة فى المجتمع }
لمصرى المعاصر } للدكتور ماهر حسن فهمى

- ١١١ — الوان من الفن الشعبي للأستاذ محمد فهمي عبد الطيف
- ١١٢ — الفطريات والحياة للدكتور عبد المحسن صالح
- ١١٣ — السد العالي والتنمية الاقتصادية ... للدكتور يوسف أبو الحجاج
- ١١٤ — الشمر بين الجمود والتطور ... للأستاذ موسى الوكيل
- ١١٥ — التفرقة المنصرية للدكتور أحمد سويلم العمري
- ١١٦ — صراع مع المكروب للدكتور محمد رشاد الطويل
- ١١٧ — الإصلاح الزراعي والميثاق ... للدكتور محمد عبد المجيد مرعي
- ١١٨ — أضواء جديدة على الحروب الصليبية ... للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الثن قرشان

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحققت
اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته
مكتبة جامعة تحوي جميع ألوان
المعرفة بأفلام أساتذة ومتخصصين
وبمقرئين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر
في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الأمم المتحدة
وممارسة نظامها
الدكتور سليمان محمد سليمان

١٥ أكتوبر ١٩٦٤